جماعة أنصار السنة المحمدية

مختصر برّ الوالدين

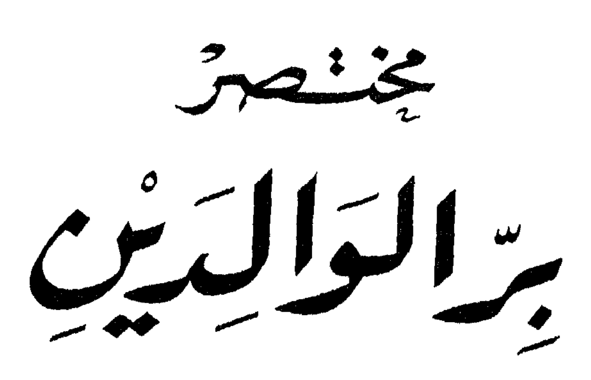
تأليف

الأستاذ / عبد الرؤوف الحناوي

هدية مجانية من مجلة التوحيد

١٧





تأليف
الأستاذ/ عبدالرؤوف الحنّاوي

١٤١٥ هـ

تنبيـــه :

هذا الكتاب مختصر لكتاب «بر الوالدين» للمؤلف رحمه الله ويقع في ١٢٨ صفحة من نفس المقاس. وقد حذف منه بعض المرويات والفقرات تيسيرًا على القراء.

والله الموفـــق

رئيس التحرير

تقديم :

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

يسرني ويسعدني التقديم لهذا الكتاب القيم الصغير في حجمه الكبير في قيمته ، لا سيما وأنه يعالج موضوعًا مهمًّا من الموضوعات التي غفل عنها كثير من الناس اليوم جريًا وراء المادة تارة ، ووراء شهوات النفس ومحبوباتها وتفضيلها على كل شيء تارة أخرى ، ووراء المرأة والصديق ، غير مهتمين ببر الوالدين - إلا من رحمه الله - وقد قرأت هذا الكتاب فألفيته

جيدًا في موضوعه حيث وضع فيه المؤلف - رحمه الله - العظات والعبر، من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والحكم البليغة، والقصص الطريفة، والنصائح القصيرة المفيدة في البر والعقوق وثمرة كل منهما في الدنيا والآخرة.

أخي المسلم: إنني أذكر لك السبب الباعث للاهتمام بنشر هذا الكتاب؛ فلقد أمضيت حقبة طويلة من الزمن في التعليم بين الشباب والآباء في المدارس والمناسبات واللقاءات بين الطرفين بالإضافة إلى اشتراكي سنوات عديدة في مجال الدعوة في الحج - ولقد رأيت وسمعت كثيرًا من القصص والعبر والمشاهدات في العقوق والبر مما جعلني أدعو دعوة صادقة كلَّ أب وابن وأم إلى قراءة هذا الكتاب وغيره من الكتب التي تعني بهذا الجانب، كما أدعو إخواني وأخواتي المدرسين والمدرسات بالعناية بهذا الجانب، وذلك في الموضوعات الإنشائية بتلخيص هذا الكتاب أو غيره مما تيسر من الكتب في هذا الموضوع وغيره في مادة التعبير - ذلك لأننا إذا فعلنا هذا فإننا نفتح أعينَهم على الكتب المفيدة. وننمي مواهبهم وقدراتهم، ونلفت أنظارهم إلى هذا الجانب المهم فلعل الله سبحانه أن يصلح شأنهم

وجميع المسلمين ويكون في ذلك خير كثير وأجر عظيم . ولنا في هدي رسول الله ﷺ خير قدوة حيث يقول : « **لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم** » ، ويقول : « **الدال على الخير كفاعله** » .

أسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يغفر لي ولوالدي ولمؤلف[١] هذا الكتاب ولوالديه ، ومن ساعد على إخراجه . ومن ساهم في تطبيق هذه الدعوة ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ، هو ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد بن علي العرفج

* * *

(١) هذه الطبعة مزيدة ومنقحة من قِبل المؤلف - رحمه الله - وكان قد هيأه للطبع وعاجلته المنية قبل طبعه فللّه الحمد والمنة على التمام .

المقـــدمـــة

أخي المؤمن ...

في عصرنا الحاضر جحود بالفضل، ونكران للجميل، وانغماس في الشهوات، وتمتع بالباطل، وفرار من معاني الروح، وتسابق إلى أحضان المادة.

في مجتمعنا الحالي عقوق للآباء، وبغض للأقرباء، وحسد بين الجيران، وغدر بالأصحاب، وخيانة للأمانة، وغش في المعاملات.

فإلى أين نسير؟

قف أيها العاقل، قليلًا كي نتبين الطريق، ونحدد الغاية، وإلا فالنهاية الخاسرة تنتظرنا إن لم نعمد إلى نفوسنا فنقومها، وأخلاقنا فنحسنها، وطباعنا فنهذبها، ومعاملاتنا فنصلحها.

ولنبدأ بالنفس فننير لها السبيل، ونحدد ما لها من حقوق وما عليها من واجبات، فإذا استقامت رسخت دعائم المجتمع قوية متماسكة. تستقيم النفس بالتربية، والتربية مصدرها الأول

الوالدان ، فلنبدأ في معالجة قضايا الأبناء ، وما يترتب عليهم من واجبات والتزامات تجاه آبائهم ، ليدركوا تمامًا أن السعيد من بر والديه ، وإن خلت يداه من حطام الدنيا ، والشقي من عقهما ولو جمع مال قارون ، وبلغ من الجاه ما بلغه كسرى وقيصر.

وفي هذا الكتيب الصغير عظات وعبر من الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، والحكم البالغة ، والقصص الطريفة ، لمن كان له قلب يعقل وأذن تسمع.

أسأل الله تعالى أن يتقبل عملي ، وأن يبسط يديه بالإحسان لمن ساهم في إخراجه ، وأن يهدينا سواء السبيل.

تنبيه : صدرت الطبعة الأولى في عام ١٣٨٢هـ ونفدت بسرعة على كثرتها . ثم فترت العزيمة عن إعادة الطبع لوهن في الجسم وضيق في الوقت ، واليوم وقد تفضل الله تعالى عليَّ بتجديد الهمة قمت بإعاده طبعه منقحًا ومزيدًا ، راجيًا الله أن ينفع به ويجزل لي المثوبة إنه جواد كريم.

عبد الرءوف الحناوي

غرة رجب ١٣٩٦ هـ

نـــــداء

إلى الأولاد عامة

وإلى أولادي خاصة

يا معشر الأولاد! يا فلذ الأكباد! يا من أصبحتم أو ستصبحون آباء وأمهات.

منذ سنين خلت كنت ابنًا مثلكم، وكان لي أم وأب يحنوان علي ويريان الدنيا جميلة بي، حلوة بوجودي. وكنت سعيدًا بهما، هانئًا بقربهما فلما فقدت أبي فقدت شطرًا من السعادة وجزءًا كبيرًا من النعيم، وجرح قلبي موته، فبقيت سنين أبكيه، ثم انحصر بعده نعيم الحياة ولذاتها في أمي، وكانت والله أمًّا طيبة، سقت ترعرعي بدموع عينيها، والتمست سعادتي بشقائها، وراحتي بتعبها، وكنت أجد فيها حنانها وعطف أبي وأعدُّها رأس مالي في الدنيا، وزادي إلى الآخرة. ثم حل بها الأجل فلحقت بأبي بعد عشر سنين،

فتصدع شرخ شبابي وهو يومئذ على أشده ، وتضعضت أركان حياتي وهي بالغة قوتها ، ووهب الله لي البنين والبنات فلم ألمس فيهم لذة الأبوين ومحبتهما ، لأني كنت أسعد بشقاء والدي ، ويسعد اليوم أولادي بشقائي ، وأستريح بتعبهما ، ويستريحون بتعبي ، وكانا يبكيان لألمي ، وأبكي اليوم لألمهم ، فشتان بين تجارتين .

لقد كنت بارًّا بهما في حياتهما ، أوثرهما على نفسي ، وأعمل ما يرضيهما ، وأقبل أيديهما صباحًا ومساءً احترامًا لهما ، وأتمرغ على أقدامهما اعترافًا بفضلهما . ولست أدعي أني كنت أبر الأبناء ، ولكني بحمد الله كسبت رضاهما ، وادخرته في صحيفتي لمآلي ، ولمست آثاره في حياتي وأعمالي .

أما بعد موتهما فلا أنساهما يوميًّا من صدقة ، ولا من الدعاء في كل صلاة ، وأحب من كانا يحبان ، وأصل أهل ودهما .

وأنتم أيها الأبناء من كان له أبوان فليهنأ بهما ، وليحرص عليهما ، وليسع جهده في إرضائهما لأنه أوتي سعادة الدنيا والآخرة . ومن فقد أحدهما فقد خسر نصفها ، فليحرص على نصفها الآخر قبل أن يزول . ومن فجعه الدهر بهما كما

فجعني ، فلا ينسهما من صلاته ودعواته . ومن أصبح منكم أبًا يدرك هذا، ومن لم يصبح فعما قريب .

بروا آباءكم تبركم أبناؤكم .

بروا آباءكم فالحياة دين ووفاء .

* * *

بـر الوالـديـن

رضى الله في رضى الوالدين:

في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى عبادة الله وحده مقرونة بالإحسان إلى الوالدين منها: قوله تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا**﴾[١] وهذا القرآن دليل على ما بينهما من تلازم وارتباط، إذ لا تكفي العبادة مع العقوق، ولا يغني الإحسان مع الإشراك، لأن من طبيعة العبادة الامتثال والطاعة ولا تتم إلا بهما، والعقوق عصيان واستكبار فهو خارج عن طبيعة العبادة ومعناها. وإلى هذا يشير الرسول ﷺ فيما رواه عمرو بن مرة الجهني رضي الله عنه: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت رمضان. فقال

(١) سورة النساء الآية: ٣٦ .

النبي ﷺ : « **من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا** – ونصب أصبعيه – **ما لم يعق والديه** »[١] .

هذا الحديث برهان صادق على أنه لابد من حسن صلة بالله عز وجل وحسن معاملة للوالدين ليتم إيمان المرء ويتقبل عمله .

وفي القرآن الكريم أمثلة على هذا الاقتران كالاقتران القائم بين الصلاة والزكاة ، قال تعالى : ﴿**وأَقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾[٢] فهما ركنان أساسيان من بناء الإسلام ، لا يتم الإيمان إلا بهما معًا ولا يقوم أحدهما مقام الآخر ، فلكل منهما حدوده وأحكامه ومراميه .

أما الإيمان والعمل الصالح فهما توأمان ، تردد ذكرهما كثيرًا في كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين**﴾[٣] وذلك ليعلم الناس أن

---

(١) الترغيب والترهيب ج ٣/ ٣٢٩ رواه أحمد والطبراني بسند صحيح .

(٢) سورة البقرة آية : ٤٣، ١١٠، وسورة النور آية : ٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت آية : ٩ .

دخول الجنة منوط بهما معًا ، وأنه لا يغني عمل صالح من غير إيمان ، كما لا ينجي إيمان من غير عمل صالح .

وروي عن ابن عباس أنه قال : ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها ، إحداها : قوله تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ (١) فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه . الثانية : قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ (٢) فمن صلى ولم يزك لم يقبل منه . الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **أن اشكر لي ولوالديك** ﴾(٣) فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه (كتاب الكبائر ص ١٤٣) .

وليس الأمر بالإحسان إلى الوالدين من خصوصيات المسلمين فحسب ، بل هو أمر إلهي قديم كتبه الله على الأمم من قبلنا بالصيغة التي أمرنا بها فقال : ﴿ **وإذ أَخَذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تَعبُدونَ إلا الله وبِالوالِدَين إِحسانًا وذي القُربي واليتَامى والمساكين** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة المائدة آية ٩٢ .

(٢) سورة البقرة آية ٤٣، ١١٠ وسورة النور آية ٥٦ .

(٣) سورة لقمان آية ١٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٨٣ .

عهد من بني إسرائيل يقطعونه على أنفسهم، ويقدمونه بين يدي ربهم أن يعبدوه فلا يشركوا بعبادته ويبروا آباءهم فلا يجحدوا فضلهم، ويعاملوا أقرباءهم بالمعروف، ويحسنوا إلى الأيتام والمساكين. وإذا بهم ينقضون الميثاق، ويخونون العهد، فيحل عليهم غضب الله.

وأثنى الله تعالى على الأنبياء، وخص بالذكر منهم يحيى عليه السلام، لأنه كان برًّا بوالديه على كبر سنهما والبر في وقت الحاجة أعظم منه في غيره، والحاجة لا تتحقق إلا في سن الشيخوخة والضعف: ﴿**وَبَرًّا بِوالدَيْهِ ولم يكن جبَّارًا عَصِيًّا**﴾[1].

وأطرى عيسى عليه السلام لتفانيه في خدمة أمه واعتزازه ببرها، واعترافه بفضلها، وخفض الجناح لها: ﴿**وَبَرًّا بوالدتي ولم يَجعَلني جبَّارًا شقِيًّا**﴾[2].

بين الله تعالى في الآيتين السابقتين أن البر والتجبر أمران متناقضان، فالجبار الشامخ الأنف، المصعر الخد الذي لا يعرف

---

(١) سورة مريم الآية ١٤ .

(٢) سورة مريم الآية ٣٢ .

معنى التواضع، لا يشعر بحلاوة الإيمان، فهو إذًا كالغصن اليابس ليس له ظل يستظل به ولا ثمر يؤكل منه، ففأس الحطاب أولى به وأجدر، وكالدخان المنتشر يتعالى بنفسه فوق الرءوس، وموضعه الحقيقي تحت الأقدام. والعقوق والعصيان أمران مترابطان فمن عق فقد عصى، ومن عصى فقد عق وفي كليهما حسرة وندامة.

وضرب مثلاً للبر بالأب إسماعيل عليه السلام حين قال له أبوه إبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿ **يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾[١] فأجابه: ﴿ **قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾[٢]. وسنأتي على قصته بالتفصيل.

والولد غراس الوالدين ونتاجهما، وهما سبب وجوده وسعادته، فإذا أثمر هذا الغراس طاب لهما أن يقطفا من ثمره، وأطيب ما يأكل الإنسان من كسب يده. يؤيد هذا ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) سورة الصافت الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الصافت الآية ١٠٢ .

«**إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم**»[١] وفي لفظ: «**ولد الرجل من كسبه فكلوا من أموالهم هنيئًا**»[٢]. وفرض الله تعالى على الولد الإنفاق عليهما ليذوقا حلاوة جهودهما؛ وجعل هذا الأمر عامًّا سواء أكانا شابين في صدر العمر أم شيخين في عجزه، غنيين أم فقيرين، فقال تعالى: ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قلْ ما أنْفَقْتُم من خير فللو الدَين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيلَ ...**﴾ الآية[٣].

والأمر بالإحسان إلى الوالدين عام مطلق؛ ينضوي تحته ما يرضي الابن وما لا يرضيه من غير احتجاج ولا جدل ولا مناقشة: وهذه نقطة هامة جدًّا يجب الانتباه إليها لأن أكثر الأبناء يغفلون عنها إذ يحسبون أن البر فيما يروق لهم، ويوافق

---

(١) رواه الخمسة وابن حبان في صحيحه والحاكم (نيل الأوطار ج ٦/ ١٤).

(٢) رواه أحمد والحاكم وصححه أبو حاتم وأبو زرعة (نيل الأوطار ج ٦/ ١٤).

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٥.

رغباتهم . والحقيقة على عكس ذلك تمامًا . فالبر لا يكون إلا فيما يخالف أهواءهم وميولهم ، ولو كان فيما يوافقها لما سمّي برًّا .

وشروط البر ثلاثة :

الأول : أن يؤثر الولد رضا والديه على رضا نفسه وزوجته وأولاده والناس أجمعين .

الثاني : أن يطيعهما في كل ما يأمرانه به وينهيانه عنه ، سواء أوافق رغباته أم لم يوافقها ، ما لم يأمراه بمعصية الله تعالى .

الثالث : أن يقدم لهما كل ما يلحظ أنهما يرغبان فيه من غير أن يطلباه منه عن طيب نفس وسرور ، مع شعوره بتقصيره في حقهما ولو بذل لهما دمه وماله .

تطلعت نفوس المؤمنين إلى معرفة أوامر الله تعالى ليطبقوها ، ونواهيه ليجتنبوها ، وتاقوا إلى هذه المعرفة فأجمل لهم ذلك في خمسة أوامر وخمسة نواه ، فقال في سورة الأنعام : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكُمْ أَلَّا تُشْرِكوا بِهِ شيئًا وبِالوالِدَينِ إحْسانًا** ﴾[1] الآيات ، فجعل حرمة العقوق كحرمة الإشراك

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

سواء بسواء. إذ ما معنى عبادة الله إن لم تطع أوامره وتجتنب نواهيه؟ وهل هي إلا امتثال الأوامر الإلهية من غير مناقشة ولا جدال؟ وهل من ادعى عبادة ربه ولم يطعه عابد حقًّا؟.

انظر هذا الأسلوب الرفيع في الآية السابقة من البلاغة القرآنية: لقد حرم الشرك وأمر بالإحسان، ومقتضى ذلك أن يأمر بالتوحيد ويحرم العقوق. فكان الشرك ملازمًا للعقوق، والتوحيد قرين الإحسان.

وجاءت آيات الإسراء تبين لنا على وجه الدقة والتفصيل النهج الذي يجب اتباعه في معاملة الوالدين ومعاشرتهما. وترسم الحدود وتحدد الاتجاه، وتشتد في التوصية بهما حين يضعفان جسمًا وتفكيرًا ومالًا: جسمًا: فيبتليان بالأمراض ويحتاجان إلى العناية والخدمة، وتفكيرًا: فيصابان بضعف القوى العقلية وضيق النفس ويعوزهما الحلم والأناة، ومالًا: فلا يقدران على الكسب والإنفاق، والولد آنئذ في عنفوان الشباب قوة ورأيًا ومالًا، لقد كان في صغره ضعيفًا فقوياه بعنايتهما، وفقيرًا فأغنياه بمالهما، وآثراه بالغذاء والكساء وأعطياه ما يريد من غير ملل ولا اشمئزاز، فلما بلغا الكبر آن له أن يفيهما بعض

دينهما .

والله جل وعز يعلم أن في الشاب نزوة وطيشًا ، وخفة وغرورًا ، فهو لا يقيس الأمور بمقياس الروية ولا يزنها بميزان الحكمة ، ولا ينظر إليها بعين التجرد والعدل . ويستحوذ عليه الغرور فيرى في نفسه الشباب المتوقد ، والتفكير السديد ، والعقل الراجح ، والقوة الخارقة ، والجمال البديع ، والفهم الصحيح ، ويغلب عليه الحمق ، وتتأبى نفسه التؤدة والأناة . فإذا صدر إليه أمر لم يطرحه على بساط التمحيص والتروي ، بل يرفضه مباشرة ، لأن نفسه جامحة لم تصقلها الحكمة ، ولم تشحذها الأيام ، ولم تهذبها الحوادث . فهو لا يلين إلا مع الشدة ، ولا يخضع إلا بالإكراه . ولذا نرى الشاب يختلف مع زميله ورفيقه ، وينفر من مطالب أستاذه ومعلمه ، وينهر أمه وأباه . يُذْعَر كالأرنب بأقل إشارة ، وينفجر كالبارود من أدنى شرارة ، فإذا نال شهادة عالية ، وكان أبواه أميين ، فالويل لهما ، لأنه يراهما دونه رأيًا وفهمًا ، وذوقًا وعلمًا ، ويرى تفكيرهما رجعيًا فاسدًا ، ونظرهما ضيقًا مظلمًا . ويزين له الشيطان أعماله فيصده عن السبيل . ومن هنا كان العقوق . ولهذا أمره

الله تعالى بالبر بهما والرفق، وخفض الجناح لهما والملاطفة، ولين القول لهما والمؤانسة. والرحمة والدعاء لهما فقال:

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه وبالوالِدَينِ إحْساناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحَدُهما أو كلاهما فَلا تَقُل لَّهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وَقُل لَّهُما قَولًا كَريمًا * وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحمةِ وَقُل رَّبِّ ارحمْهُما كما رَبَّياني صَغيرًا * رَبُّكم أعْلَمُ بِما في نُفوسِكُمْ إنْ تَكونوا صالحين فَإنَّه كانَ لِلأوَّابينَ غَفورًا ﴾ [١].

آيات محكمات، فيها النصح المحض، والتوجيه الصادق والخير والسعادة، لو تدبرها الأبناء وأدركوا معانيها وأيقنوا أنهم سيجزون في كبرهم بما جازوا به آباءهم لما عقوا أبًا ولما انتهروا أمًّا.

أخرج الديلمي عن الحسين بن علي رضي الله عنه مرفوعًا:

« لو علم الله شيئًا من العقوق أدنى من (أفٍّ) لحرمه » [٢].

والحياة دين ووفاء فمن بر والديه بره أبناؤه ومن مبدأ الإسلام

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٢٣- ٢٥.

(٢) فتح القدير للشوكاني ج٣/٢١٨.

السامي في مبادلة الإِحسان بالإِحسان انطلقت الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة تحث الناس على الوفاء لآبائهم . والاعتراف بفضلهم ، والبر بهم ، ورغبت في ذلك ، وتوعدت العقوق ، وبينت مآسيه ومخازيه . وضربت الأمثال وأقامت الحجج ، وروت القصص ، ليتعظ الناس ويرعووا . وإليكم يا معشر الأبناء طرفًا مما جاء في معاملة الوالدين :

يردد الولد البار قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ **ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾[1] ويردد قوله سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ **رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾[2] .

وبر الوالدين سبب في تفريج الكروب وذهاب الهموم والأحزان وعلى الأبناء أن يقتدوا في بر آبائهم بالقصة التي رواها رسول الله ﷺ حيث قال : « **بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلي غار في الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم**

(١) سورة إبراهيم ٤١ .

(٢) سورة نوح آية ٢٨ .

لبعض : انظروا أعمالًا عملتموها لله صالحةً فادعوا الله بها لعله يفْرُجها فقال أحدهم : اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ، ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم فإذا رُحت عليهم فحلبت بدأت بوالديَّ أسقيهما قبل ولدي . وإنه ناء بي الشجر فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما ، والصبية يتضاغَون عند قدمي . فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتي طلع الفجر . فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ففرج الله فرجة فرأوا منها السماء . وقال الثاني : اللهم إنه كان لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمئة دينار . فسعيت حتى جمعت مئة دينار فلقيتها بها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم ، فقمت عنها . اللهم فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها ، ففرج لهم فرجة . وقال الآخر : اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفرق أرز ،

فلما قضى عمله قال : أعطني حقي ، فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا وراعيها . فجاءني فقال : اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي . فقلت : اذهب إلى ذلك البقر وراعيها . فقال : اتق الله ولا تهزأ بي : فقلت : إني لا أهزأ بك ، فخذ ذلك البقر وراعيها ، فأخذه فانطلق بها . فإن كنت تعلم إني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقي . ففرج الله عنهم » (١) .

بهذه القصة الحقيقية الواقعية يعتبر المؤمن العاقل ، ويوقن أن إرضاء والديه سبب في حلول الفرج إذا بلغت الشدة غايتها ، وتسهيل العسير إذا استحكمت عُقدها ، فإذا رضي الوالدان رضي الله ، وانحلت العقدة ، ولان القاسي ، وسهل العسير ، وتحققت الأماني .

والولد البار يهنأ بعمره ويطمئن في عمله ، وتحفه السعادة من كل جانب ؛ إذ السعادة الحقيقية في رضى النفس وقناعتها لا في كثرة المال وبسط الجاه ، ولا يتأتى هذا إلا إذا أدى واجبه باندفاع ورغبة ، وما أحلى الحياة إذا طال فيها العمر ، وانبسط

---

(١) صحيح البخاري ج ٤٧/٣ .

فيها المال، وغمرتها السعادة! وما أهنأ العيش إذا رافقته طمأنينة النفس، وراحة الضمير، ومحبة الناس!.

أما من قدر عليه رزقه، وضاقت به سبل العيش، وخشي قصر العمر فقد وصف له النبي ﷺ العلاج الشافي فقال، فيما رواه عنه أنس رضي الله عنه: « **من سره أن يمد له في عمره، ويزاد له في رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه** »(١).

وعن وهب بن منبه رحمه الله تعالى: أن الله تعالى قال: (يا موسى وقر والديك فإنه من وقر والديه مددت في عمره، ووهبت له ولدًا يبره، ومن عق والديه قصّرت عمره، ووهبت له ولدًا يعقه)(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: « **إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يَرُدُّ القَدَر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر** »(٣).

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) نزهة الناظرين ص ١٨٦.

(٣) رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم بتقديم وتأخير وقال: صحيح الإسناد (الترغيب والترهيب ج ١٣٧/٣).

وليست الزيادة في العمر أن يتغير موعد الأجل ويطول، ولكن أن يرزق الله تعالى الرجل ذرية صالحة يلحقه دعاؤهم له بعد موته. وهذا ما يؤيده قول أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر، فقال: «**إن الله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له فليلحقه دعاؤهم في قبره**»[1].

وعن رافع بن مكيث رضي الله عنه وكان ممن شهد الحديبية أن النبي ﷺ قال: «**والبر زيادة في العمر، والصدقة تمنع ميتة السوء**»[2].

عليك ببر الوالدين كليهما، وبر ذوي القربي وبر الأباعد.

بر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله:

عمت الدعوة الإسلامية أرجاء المعمورة بسبب الجهاد الذي بذله المسلمون لإعلاء كلمة الله تعالى. ولولا الجهاد لانطوى

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ج ٤/ ٣٧٣).
(١) رواه أحمد ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ج ٨/ ١٣٧).

الإِسلام على نفسه في تلك البقعة الصغيرة التي انطلق منها ، ولاندثرت معالمه في فترة وجيزة من الزمن .

لا تنتشر الدعوة إلا بالجهاد العقلي والمنطقي والإِقناعي ، فإذا حال دون انتشارها حائل بعد ذلك أزيح بالقوة . وهذا هو الواقع الذي سارت عليه الدعوة ، وهو رد على من يقول بأن الإِسلام انتشر بالسيف . ومع عظم قدر الجهاد وفضله في بث كلمة التوحيد - التي من أجلها أوجد الله تعالى الكائنات ، وخلق السموات والأرض وما فيهن ، وأحبط عمل كل امرىء لم يقر بها - فقد قدم عليه بر الوالدين وطاعتهما .. ولا يعني هذا أن برهما إذا خلا من كلمة التوحيد يدخل صاحبه الجنة ، لأن البر مع الشرك لا يقام له عند الله وزن ، ولا يغني من عذاب الله من شيء إذ جاءت الآية الكريمة صريحة في هذا فقال تعالى : ﴿ **وإنْ جاهَدَاكَ على أنْ تُشرِكَ بي ما ليسَ لكَ به عِلْمٌ فلا تُطِعْهما** ﴾[1] . ولكن إيثار برهما على الجهاد دليل على المنزلة التي أنزلهما الله فيها ، وعلى الحق الذي منحهما إياه ليعرف

---

(١) سورة لقمان آية : ١٥ .

الأبناء فضلهما وقدرهما وإليكم بعض الأحاديث الشريفة الواردة في هذا الشأن :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال : « **الصلاة على وقتها** » . قلت : ثم أي؟ قال : « **بر الوالدين** » . قلت : ثم أي؟ قال : « **الجهاد في سبيل الله** » . حدثني بهن ولو استزدته لزادني [١] .

الصلاة هي الدعامة الأولى من دعائم الإسلام الأربع التي أقيمت على أساس واحد متين هو الشهادتان ، وبما أنها أفضل الدعامات وأعلاها ، وأعظمها منزلة عند الله تعالى ، وكان جحودها كفرًا يقتل مرتكبه كالجحود بالأساس ، فقد خصها الرسول ﷺ بالتقديم لبيان قدرها وفضلها .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رجل للنبي ﷺ : أجاهد . قال : « **لك أبوان؟** » قال : نعم . قال : « **ففيهما فجاهد** » [٢] .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) صحيح البخاري ج٤/٤٧ .

أي : ابذل غاية جهدك في خدمتهما ، واعمل أقصى ما تستطيع لإرضائهما ، لأن من عادة الولد أن يعتبر أقل معروف يسديه إلى والديه فضلًا كبيرًا عليهما ، ويخال أنه وفاهما به حقهما . أما هما فيبذلان الغالي والثمين من أجله عن طيب نفس ورضى ، ولا يمنان عليه .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : هاجر إلى رسول الله ﷺ رجل من اليمن . فقال له رسول الله ﷺ : «**هجرت الشرك ولكنه الجهاد ، هل باليمن أبواك ؟**» قال : نعم . قال : «**أذنا لك ؟**» قال : لا . فقال رسول الله ﷺ : «**ارجع إلى أبويك فإن فعلا وإلا فبرهما**» [(١)] .

اسمعوا يا معشر الأبناء ! لا يجوز لكم الجهاد ولا السفر إن لم يأذن لكم آباؤكم وأمهاتكم فأين أنتم من هذا التوجيه الرفيع؟ عليكم أن تستأذنوهم بكل أعمالكم . وتستمزجوا آراءهم في جميع مشكلاتكم ، فإنهم يمنحونكم النصح ، ويرشدونكم إلى طريق الصواب ، ويرجون لكم السعادة

(١) رواه أحمد بإسناد حسن (مجمع الزوائد ج٨/ ١٣٧) .

والتوفيق .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني جئت أريد الجهاد معك ، ولقد أتيت وإن والدي يبكيان . قال : « **فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما** »[1] .

يا سبحان الله ! أتدع والديك يبكيان ، ويهتز لبكائهما عرش الرحمن ، وتضج الملائكة في السموات ، وتزعم أنك تريد الجهاد ليرضى عنك الله ؟ عد إليهما فأضحكهما بلقائك كما أبكيتهما بفراقك ، فإذا ضحكا رضيا وإن رضيا رضي الله تعالى عنك . قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم : قال أبو محمد بن عبد السلام : يحرم على الولد الجهاد بغير إذن الوالدين لما يشق عليهما من توقع قتله أو قطع عضو من أعضائه وشدة تفجعهما على ذلك[2] .

كل هذه الأحاديث تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه (نيل الأوطار٧/ ٢٣١) .

(٢) انظر ص٢٢ من بر الوالدين للغماري عن قول النووي في شرح مسلم .

أعد للوالدين منزلة عالية . وفرض لهما حقوقًا كثيرة . وقدم برهما على الجهاد في سبيله رحمة منه وفضلًا . وليس هذا البر في الحقيقة إلا نوع من الجها د: فهو جهاد الجسم في الخدمة ، وبالنفس في الطاعة ، والمال في الإنفاق . ولا يقوم بذلك إلا من أراد الله له الخير ، وكتبه من السعداء .

من هذا التشريع السامي اقتبست الحكومات نظام إعفاء المعيلين من الرجال لئلا يحرم أهلوهم خيرهم ، فيبقوا عالة يتكففون الناس . وسيمر بنا كيف أعفى عمر رضي الله عنه رجلًا من الجهاد إكرامًا لوالديه وأجرى له العطاء .

لا تعجب أيها الأخ المؤمن أن قدم الله تعالى بر الوالدين على الجهاد في سبيله . فكلمة التوحيد لا إله إلا الله وعبادة الله عز وجل أعلى وأغلى من برهما ، ولكن هناك أمر واحد يزيل العَجَب من نفسك وهو أن بر الوالدين فرض عين . فإذا قصرت في برهما فمن ذا الذي يبرهما ؟ أما الجهاد فهو فرض كفاية – إلا في حال غزو العدو بلاد المسلمين وإعلان النفير العام – فإذا صحبت والديك . ولزمت أقدامهما قام بالجهاد غيرك . أما

خدمتهما فلا يتولاها أحد سواك .

ولقد اعتبر الرسول ﷺ قيام الولد في خدمة أبويه والسعي عليهما جهادًا في سبيل الله .

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب النبي ﷺ جلده ونشاطه فقالوا : يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ : « **إن كان خرج يسعى على وَلَده صغارًا فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعي علي أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان** »[1] .

الجهاد في سبيل الله خير تجارة يتعاطاها المؤمن : لأن فيها الفوز في الدنيا والسعادة في الآخرة . ومن أحسن عملًا ممن وهب نفسه وماله لله تعالى بيتغي الأجر منه والثواب ؟ لقد تكرم الله فاعتبر المجاهد في كسب المال للإنفاق على والديه

(١) رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة ورجال الكبير رجال الصحيح .

كالمجاهد في سبيله لإعلاء كلمته .

رضى الوالدين مقدم على رضي الزوجة

بعد أن بين الله تعالى في سورة النساء حقوق الزوجات وواجباتهن ، انتقل إلى ذكر حقوق الآباء فأوصى بهم أبناءهم خيرًا لئلا ينصرفوا إلى نسائهم انصرافًا كليًا فينسوا حقوق آبائهم عليهم . ويتهاونوا في القيام بشئونهم . وتطغيهم شهوة النفس فيعموا عن نور الحق . أو تتمادى بهم الأيام فيحول بسط العيش معهم دون تأدية هذه الواجبات . فقال : ﴿ **وَاعبُدُوا الله وَلا تُشْرِكوا به شَيْئًا وَبِالْوالِدَيْن إحسانًا....** ﴾ (النساء : ٣٦) .

كثيرًا ما سمعنا أن رجلًا تملكه الغرور ، واستحوذ عليه الضلال ، فتبع شهوته . وهدر مروءته . أكرم زوجته ظانًّا فيها منتهى الوفاء ، وأهان أمه ناظرًا إليها نظرة العداء ، مع أن الله تعالى أعطى كل ذي حق حقه ، وحدد لكل إنسان ماله وما عليه ، وصان له حقوقه ، وأمره بالمحافظة عليها ، وخط له حدودًا ، وأوجب عليه ألا يتعداها . فجعل حقًا له سبحانه ، وحقًّا للوالدين ، وحقًّا للجسد ، وحقًا للأولاد ، وحقاً للزوجة ،

وحقًّا للأقرباء، وحقًّا للجيران، وحقًّا للأصحاب، وحقًّا للخدم، وحقًّا للناس أجمعين، وبين هذه الحقوق، وأمر ألا يطغى بعضها على حساب بعض، ولا يهمل طرف لمصلحة طرف، والشقاق الذي يقع بين الزوجين ناتج في أغلب الأحيان عن عدم تفهم كل منهما حدوده وحقوقه؛ والمسئولية الكبرى في هذا المجال تقع على عاتق الزوج وحده، لأنه يستطيع بحكمته ولباقته أن يجري الأمور مجرى حسنًا، ويلقي التفاهم بين أهله وزوجته. والمرأة في أنوثتها عاطفية مسالمة، يسترضيها من زوجها كلمة طيبة، وابتسامة حلوة، ووعد خلاب. ويستطيع هو بما آتاه الله من عقل وحكمة أن يسوس الأمور وفاقًا للمصلحة.

كثيرًا ما بلغنا اتفاق الزوجين على تصفية الجو بينهما وبين أهليهما كلما تعكر، بطريقة نيرة ناجحة. وقد جربت ذلك بنفسي مرارًا فنجحت التجربة. وإني أوصي الأبناء باتباعها لتصفو حياتهم، وتستقيم الأمور بينهم وبين أزواجهم وأهليهم.

من الأمور المسلم بها أن العداء يقع في أغلب الأحايين بين

أم الرجل وزوجته، ولو كانتا قريبتين، أو كان بينهما قبل المصاهرة محبة ومودة. وهذا الشقاق على ما يبدو متأصل في نفوسهن، وهن مفطورات عليه. فإذا سمعت أيها الأخ الكريم أن خلافًا نشب بين الأخ وأخيه، والأخ وأخته، والعم وابن أخيه، والخال وابن أخته. وغيرهم من ذوي القربى، أو من غير ذوى القربي بسبب المصاهرة الزوجية فلا تعجب، وقل: هذا أمر طبعي. وأصدر معظم أحكامك في هذه الخلافات على الزوج، واعتبره المسئول الأول، لأنه لم يستعمل حكمته، ولم يحكم في الخلاف عقله، ولم يعط كل ذي حق حقه.

حدثني من أثق به قال: منذ اللحظة التي أويت فيها إلى زوجتي، بينت لها حقوقها وحقوق والديَّ، ورسمت لها حدودها في معاملتهما ومعاملتي، وألقيت في روعها أني أفديهما بروحي ومالي، وأني لا أتخلى عنهما ولو تخلت عني سعادة الدنيا وخيراتها، وأن عليها أن تعينني على برهما وطاعتهما. لاسيما وقد أصبحت شريكة حياتي، ومفضى سري، ولها علي أن أتعب في سبيل إسعادها وأغضب

لإرضائها ، وأقدم إليها كل ما تريد بما أملك ، وأهيىء لها جو المرح والسرور ، وأكرم أهلها وأحبهم . واتفقنا على ألا يسمع أحد خلافًا بيننا ، وأنه إذا ثار نزاع بينها وبين أمي أو أبي أقف إلى جانبه رأسًا ، وأزبد وأرعد ، وأهدد وأتوعد ، تظاهرًا ورياء ، وأحكم له بالحق ولو كان الحق عليه ، وأقطب وجهي ، وأعبس في وجهها . ثم أدخل غرفة أبوي ، فأسترضيهما ، وأؤكد لهما أني سأستغني عنها لأجلهما ، وأنهما أعز علي من روحي وولدي وزوجي ومالي . ثم انكب على أيديهما فأقبلها ، وأمرغ وجهي عليها ، وأقسم لهما أن انزعاجهما يؤلمني جدًا - وهذا هو الواقع - فإذا رضيا واطمأننت إلى هدوئهما وصفاء نفوسهما تظاهرت أني سأقوم فأضربها ، وأبعث بها إلى أهلها ، فيمنعاني من ذلك ، وأتعنت فيجزمان عليَّ ألا أفعل . فإذا انصرفت إلى غرفتي أغلقت الباب ، وانهلت على الوسادة ضربًا بيدي ، وزوجتي تصيح من زاوية الغرفة البعيدة كأن الضرب واقع عليها ، فيسرعان إلي ، ويصيحان بي ، ويرجواني أن أكف عن ضربها ، ويدفعان الباب فأوصد بظهري ، حتى إذا ما علا

صياحهما فتحته وعلي أمارات الغضب ، وخرجت عابس الوجه ضاحك القلب ، فيهرعان إلى مصالحتها وتحل المشكلة . هذا إذا كان الحق معها . أما إذا كان الحق عليها فأعاتبها وألومها فيما بيني وبينها ، فإذا هدأت وارعوت - والمفروض بالمرأة العاقلة الطيبة أن ترعوي - تسرع إليهما فتصالحهما ، وينتشر السلام من جديد .

أعجبني هذا الأسلوب فوصفته علاجًا لبعض إخواني فكان ناجحًا ، وإني أنصح لكل متزوج أن يجربه فيرضي ويرضى ، ويستريح ويريح .

والوالدان تغلب عليهما الشفقة ، وتدفعهما محبة الولد إلى تحمل الألم من أجله ، وأعز أمانيهما أن يفرحا بزواجه ، ولهذا فهما يرضيان بسرعة مخافة أن يتكدر أو يحزن . اللهم إذا لم يلحظا عليه انصرافًا عنهما إلى زوجته ، وإيثارها عليهما ، فإذا لحظا ذلك ثار في نفسهما حب الذات ، وله الحق أن يثور ، ونظرا إليه وإلى زوجته نظرة المقت والكراهة ، وتأججت بينهم نار الجحيم .

حفظ الإسلام للزوجة حقوقها ، وصان لها كرامتها ،

وأوجب على الرجل الإنفاق عليها، وحسن معاشرتها فقال: ﴿وَعَاشِرُوهنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُموهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شيئًا وَيَجْعَلَ الله فيهِ خَيرًا كَثيرًا﴾[(١)]، بيد أنه لم يقدم لها حقًّا على حقوق الوالدين؛ لأن رباط الولد بوالديه رباط دم وروح، وحب ونسب، ورباطه بزوجه رباط مودة ورحمة وألفة، فإذا فشلت المساعي التي يبذلها لإيجاد التفاهم بينها وبين أهله، وأمره والداه أو أحدهما بفراقها فعليه أن يطيعهما، ولو أدى ذلك إلى خسارته لأن في إرضائهما سعادته في الدنيا والآخرة.

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كانت تحتي امرأة وكنت أحبها، وكان عمر يكرهها فقال لي: طلقها. فأبيت فأتى عمر النبي ﷺ فذكر ذلك له. فقال النبي ﷺ «**طلقها**»[(٢)].

---

(١) سورة النساء الآية ١٩.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح (رياض الصالحين - ١٤٩).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلًا أتاه فقال: إن لي امرأة، وإن أمي تأمرني بطلاقها. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه**»[١].

في هذا الحديث بيان واضح أن في عقوق الوالدين إضاعة لأوسط أبواب الجنة، وأوسطها أعدلها وأكثرها خيرًا وفي برهما حفظه. فمن التمس السعادة حافظ عليه ولو على حساب راحته وسروره، ومن باع آخرته بدنياه وآثر الحياة الفانية على الحياة الباقية، وفضل اللذة المؤقتة على اللذة الدائمة فإنه لا يبالي إن حفظ أو ضاع. هذا إذا كانت المرأة صالحة وأمراه بفراقها. أما إذا كانت سيئة الخلق، خبيثة المنبت، رديئة الطبع، جموح القيادة فطلاقها خير وأبقى.

نحر أعرابي جزورًا، وقال لامرأته: أطعمي أمي منه. فقالت: أيها أطعمها؟ فقال: قطعي لها الورك[٢]، قالت:

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (رياض الصالحين - ١٥٨).

(٢) الورك: فوق الفخذ.

ظوهرت بشحمة وبطنت بلحمة ، لا لعمر الله . قال : فقطعي لها الكتف . قالت : الحاملة الشحم من كل مكان ؟ لا لعمر الله . قال : فما تقطعين لها ؟ قالت : اللَّحْي [١] . ظوهرت بجلدة وبطنت بعظم . قال : فتزوديها إلى أهلك ، وخلى سبيلها [٢] .

هذا مثال للمرأة السيئة ، لا يصلح إحسانك فسادها ، ولا يقوّم صبرك عليها اعوجاجها ، لأنها كالغصن اليابس إن لم تسرع إلى قطعه سرت عدواه إلى بقية الأغصان ، فنبتت أفنانها أسوأ منه ، أفيلام الزوج بعد هذا على تخلية سبيلها ؟ أنصفن يا معشر النساء ولا تنظرن إلى تلك المرأة كما لو كانت إحداكن بديلة منها وأرادت إطعام حماتها من الجزور ، بل انظرن إليها كما لو كانت زوجة أخيكن وأرادت إطعام أمّكنّ ، ثم احكمن بعد ذلك لها أو عليها .

بر الوالدين بعد موتهما :

لم تكتف آيات الإسراء بالأمر بالإحسان إلى الوالدين

(١) اللحي : بفتح اللام وسكون الحاء منبت اللحية .

(٢) المحاسن والمساوئ ص ٢٥١ .

وإطاعتهما وإكرامهما ، بل فرضت على الابن أن يذكر معروفهما وأياديهما بالشكر والثناء فلا ينساهما من الدعاء والاستغفار وطلب الرحمة ، ﴿ **رَبِّ ارْحَمْهُمَا كما رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾[١] . ولا يقتصر على الدعاء لهما في حياتهما فحسب بل بعد موتهما أيضًا حيث تنقطع أعمالهما عن الدنيا ، فلا يتزودان بأكثر مما قدما إلا بما يهبه لهما ابنهما ، والسفر طويل ، والزاد مهما يبلغ ضئيل ، ولا يسهل السفر ويعزز الزاد إلا أحد ثلاثة ذكرها الرسول ﷺ بقوله : « **إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** »[٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « **ترفع للميت بعد موته درجته . فيقول : أي ربي أي شيء هذا ؟ فيقول له : ولدك استغفر لك** »[٣] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٤ .

(٢) أخرجه مسلم وغيره .

(٣) أخرجه ابن ماجه ومالك في الموطأ (الأدب المفرد للبخاري ١/ ١١١) .

ألا إن خير ما يرجو الولد لوالديه المغفرة لهما ﴿**رَبِّ اغْفِر لِي وَلِوالِدَيَّ**﴾ (نوح: ٢٨). وهو ما جاء على لسان الرسل الكرام، وطلب الرحمة لها ﴿**رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ (الإسراء: ٢٤).

إن استغفاره لهما مقبول عند الله تعالى لأنه شكر على معروف، وإسداء لفضل، ووفاء لدين. والوالدان بعد موتهما في أشد الحاجة إلى الإحسان: لأنهما أدركا حقيقة المسئولية الكبرى، وذاقا ضمة القبر وهول الحساب، وندما على كل لحظة قضياها في حياتهما الدنيا بلهو وعبث، وتحسرا على ضآلة زادهما من العمل الصالح، وانقطع رجاؤهما إلا من رحمة الله تعالى، فإذا وصل إليهما خير من ولدهما تلقياه بتلهف وابتهاج كما تتلقى الأرض الجدبة ماء السماء.

حدث مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هل بقي عليَّ من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «**نعم. خصال أربع: الصلاة**

عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلى من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما »[1] .

فالصلة إذًا مازالت قائمة بين الولد وأبويه ، يطلب الرحمة والمغفرة لهما من الله تعالى ، وينفذ عهدهما ، ويكرم صديقهما ، ويصل رحمه التي هي من قبلهما ، فينال بذلك رضى الله ورضاهما . ومن الوفاء ألا ينسى الإنسان المعروف ، ولا يجحد الفضل ، ومن كافأ على معروف أسدي إليه ، وهو لا يزال يعتبر نفسه مقصرًا تجاه صاحبه ، كان أكثر الناس وفاء ومروءة ، والولد المغمور بأفضال والديه حري أن يرى نفسه عاجزًا ومقصرًا ومدينًا ، ولو بلغ في البر أقصاه .

هذا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يضرب لنا المثل الصالح في الولد الصالح ، ويروي لنا عبد الله بن دينار ذلك فيقول : إن عبد الله بن عمر لقيه رجل بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة

---

(١) روا أحمد ورواه أبو داود وابن ماجه . (تفسير ابن كثير ج٣/ ٣٥) .

كانت على رأسه . قال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله إنهم الأعراب ، وإنهم يرضون باليسير . فقال عبد الله : إن أبا هذا كان ودًّا لعمر بن الخطاب ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه** »(١) .

هكذا فليكن الأبناء : حب للآباء وبر بهم ، اعتراف بفضلهم وطاعة لهم ، إيثارهم على النفس والأهل والولد ، خفض الجناح لهم ولين الكلام ، ثم امتداد لهذه الرابطة القوية بعد وفاتهم : دعاء لهم واستغفار ، استمطار الرحمة عليهم والرضوان ، إكرام من كانوا يحبون ، صلة من كانوا يصادقون ، حفظ مودة من كانوا يوادون ، تزويدهم بالصدقات والمبرات ، وأخيرًا تقرب إلى الله تعالى ببرهم . وابن عمر رضي الله عنهما أوضح لنا هذه المعاني كلها بلقاء ابن صديق أبيه .

من الأمور المسلم بها أن ينتقل كثير من طباع الأب عن طريق الدم إلى ابنه ، فيأتي شبيهًا به في الخَلق والخُلق ، وينزع في صغره إلى تقليده في حركاته وسكناته ، ومشيه وكلامه ،

---

(١) صحيح مسلم ج ١٠٩/١٦ .

وينشأ على حب من يحب، وبغض من يبغض، ويرث عنه كثيرًا من الصفات والمزايا، فما لاءم منها ميوله ورغباته داوم عليه واحتفظ به في كبره، ومنه الصداقة والودة.

والمثل السائر يقول: محبة الآباء متصلة بالأبناء.

ولقد دفع الإِسلام إلى المحافظة على مودة أصدقاء الآباء، وحث عليها، ليستمر الترابط الأخوي بين الناس، وتزيد الصلة والألفة، فتبقى الكلمة متحدة، والقلوب متآلفة، ويسود الطمأنينة والسلام. وحذر مغبة التقاطع، وتوعد من يقطع صلة أهل ود أبيه بإطفاء نوره، لأنه حاول إطفاء نور التحابب والتآلف.

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك**»[١].

هذه فرصة سانحة لمن فاته الخير في حياة والديه فلم يعمل على إرضائهما، ورحمة من الله واسعة لمن قصر عن مقام الأبرار. والولد يشعر بحسرة كبيرة بعد وفاة والديه، ولا سيما

(١) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

إن كان مسيئًا إليهما في حياتهما، لأنه لم يعرف قيمتهما إلا بعد زوالهما، ولقد وصف له هذا الحديث الشريف ما يزيل من نفسه الحسرة والندامة، وما يعوض عليه ما فاته من خيرات.

ليس بر الوالدين مقصورًا بعد موتهما على الدعاء لهما فحسب، بل للولد أن يصوم ويحج عنهما، والصوم والحج كما نعلم ركنان من أركان الإسلام، فإذا علم أحدنا أن على والديه أو أحدهما دينًا من صيام قضاه عنهما وإذا لم يحجا حج عنهما ولو لم يوصيا بذلك، وقيام الولد بأداء هذين الفرضين عنهما يزيل مسئوليتهما أمام الله تعالى، ويزيد في حسناتهما ولا ينقص من أجره شيء.

قال بريدة رضي الله عنه: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية، وإنها ماتت (أي أمها) فقال: « **وجب أجرك، وردها عليك الميراث** ». قالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: « **صومي عنها** ». قالت: إنها لم تحج قط

أفأحج عنها ؟ قال : « **حجي عنها** »[١] .

نستدل من هذا على أن الأبوين أولى بالصدقة وأن مفهوم الصدقة هنا يختلف عن المفهوم المتعارف بين الناس من حيث أنه جبر للخاطر الكسير ، وسد رمق للبطن الجائع ، وستر لعورة البائس العريان ، وكف للنفس عن التسول والذل ، وتطهير للمال وتحصين له وإنما مفهومها : مكافأة على الإحسان ، واعتراف بالجميل ، وتأدية للواجب ، وتقرب إلى من أنت بحاجة إليه .

وهي بهذا المعنى شبيهة بإقراض الله تعالى : ﴿ **إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ (التغابن ١٧) والله الغني وأنتم الفقراء . ومن هنا كان صوم الولد عن والديه ، وحجه عنهما ، نوعًا من جزاء الإِحسان بالإِحسان ، ومكافأة الهدية بالهدية ، ومبادلة الخير بالخير .

في تأدية الحج وفاء لحق الله تعالى ، وفي قضاء الدين تسديد لحق العباد . ومن وفى عن والديه حق الله وحق الناس كان أهلًا

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود – (جامع الأصول ١/ ٣٤) .

للشكر والإِحسان، وشكره من الله تعالى أن يسجله في قائمة الأبرار، وإحسانه إليه أن يدخله جنات النعيم.

إن من قصر في بر والديه في حياتهما، وندم على ما فرط، وخاف عاقبة العقوق فباب الإِحسان إليهما مفتوح على مصراعيه، فليدخل منه صائمًا أو حاجًا عنهما، أو داعيًا ومستغفرًا لهما، أو واصلًا أهل ودهما وواهبًا ثواب الخير لهما.

البر بالخالة:

وإن من بر الأم بعد موتها بر أختها. يدل على هذا حديث ابن عمر قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: إني أذنبت ذنبًا عظيمًا فهل لي من توبة؟ فقال: «**هل لك من أم؟**» قال: لا. قال: «**فهل لك من خالة؟**» قال: نعم. قال: «**فبرها**»[1].

الإحسان إلى الوالدين الكافرين:

أما طاعتهما فيجب أن تكون مطلقة، أي: طاعة تامة

(١) رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح شرطهما ورواه أحمد ج٢/١٤.

كاملة، إلا في معصية إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
وجاءت آية سورة العنكبوت في هذا الموضوع مؤيدة لآية سورة لقمان. بهذا أمرنا الله تعالى، وأمرنا رسوله ﷺ، وقضى علينا الحق والعدل والمنطق السليم. وهذه الأوامر ليست مقصورة على الوالدين المؤمنين فحسب بل على الوالدين المشركين أيضًا؛ لأن الولد ينال أجر برهما، وليس عليه وزر شركهما.

جاء في سبب نزول آية العنكبوت أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أنزلت هذه الآية: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** ...﴾[1] قال: كنت رجلًا برًا بأمي. فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي فيقال: يا قاتل أمه. فقلت: لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلة لم تأكل. فأصبحت قد جهدت. فمكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يومًا وليلة أخري لم تأكل فأصبحت قد اشتد

(١) سورة العنكبوت الآية ٨.

جهدها . فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي . فأكلت .

علمنا الإسلام ألا نطيعهما في إشراك ولا معصية ، ومع هذا فلا يجوز لنا أن نتخذ من كفرهما وإشراكهما حجة في عدم برهما وحسن معاشرتهما ، فقال تعالى : ﴿ **وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنيا مَعْرُوفًا** ﴾[1] . وهذه الفقرة من الآية الكريمة دليل ساطع على نبل الإسلام ، وعدله السامي ، وتقديره الرفيع للمعروف . لقد تعبا من أجلك ، وهداك الله إلى الإيمان . فكافئهما بالإحسان الدنيوي ولو بقيا على شركهما ، والله أعلم بحالهما وإليه مرجعكم جميعًا فيحاسب كل امرىء بما عمل .

عن أسماء رضي الله عنها قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم ، إذ عاهدوا النبي ﷺ - أي بعد صلح الحديبية - مع أبيها . فاستفتيت النبي ﷺ فقلت : إن أمي قدمت ، وهي راغبة- (أي طامعة فيما

---

(١) سورة لقمان الآية ١٥ .

عندي) تسألني الإحسان إليها فهل أصلها ؟ قال : « **نعم صلي أمك** »[١] قال ابن عيينة : فأنزل الله تعالي قوله : ﴿ **لا يَنْهاكُم الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلوكُمْ في الدِّين** ﴾ (الممتحنة : ٨) .

فأسماء هذه بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما لم يمنعها بقاء أمها على الكفر من برها علماً بأن أبا بكر كان قد طلقها قبل الهجرة . لقد رغبت في الإحسان إليها ، ولكنها خشيت أن يكون ذلك مدعاة إلى اقتراف ذنب بموالاتها لكافرة ، فاستشارت النبي ﷺ فأشار عليها بإيفائها حقها عليها في الحمل والرضاع والتربية فقال : نعم . ثم عزز هذا القول بقوله : « **صلي أمك** » لئلا يخطر ببال أسماء أنه أراد في الأولى مسايرتها ، وأيده الله تعالى بالآية السابقة لأن حكم الله في دينه إظهار الحق والاعتراف به ، وأداؤه والحفاظ عليه ، سواء أكان في ذلك حقه أم حق عباده ، ولا يحول كفرهم بالله عز وجل دون إحسانه إليهم بالنعم في الدنيا ، فعباده أولى بتأدية حقوقهم

(١) صحيح البخاري ج ٥/٨ .

إليهم .

هذا عبد الله بن أبي بن سلول كبير المنافقين يعود بثلث المجاهدين في غزوة أحد تثبيطًا لهمة المسلمين ، وإطفاء لشهوة الحقد المتأججة في صدره عليهم ، والرسول ﷺ يغضي عنه لئلا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه . وها هو يؤلب قومه على رسول الله ﷺ وصحبه بعد غزوة بني المصطلق ، حيث اختلف على الماء أجير لعمر ابن الخطاب مع أحد الأنصار ، وتماسكا ، فصاح الأنصاري : يا معشر الأنصار ، وصاح الأجير : يا معشر المهاجرين ووجدها عبد الله بن أُبيٍّ فرصة سانحة لتأليب الأنصار على الرسول والمهاجرين ، فأراد استغلالها ليوقع بين المسلمين ، فقال : (أو قد فعلوها ؟ - يريد بذلك المهاجرين - قد كاثرونا في بلادنا . أما والله لئن رجعت إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) ثم يقول لقومه (هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم ، والله لئن أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم) فتنزل فيه آيات من سورة المنافقين : ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا**

تُنفِقُوا على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنْفَضُّوا ولله خزائنُ السمواتِ والأرضِ ولكنَّ المنافقين لا يَفقَهون . يقولون لئِن رجَعْنَا إلَى المدينةِ لَيُخرجن الأعَزُّ مِنها الأذَلَّ ولله العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ولِلْمؤمِنِينَ ولكِنَّ المنافِقِينَ لا يَعْلمون ﴾[1] سمع ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي هذا القول الإلهي ، والإيمان يعمر قلبه ، وحب الله ورسوله قد ملك عليه لبه ، وأيقن أن رسول الله ﷺ قاتل أباه لا محالة ، فجاء إليه يقول يا رسول الله هو الذليل وأنت العزيز . يا رسول الله إن أذنت لي في قتله قتلته ، فإن كنت فاعلًا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنًا بكفر فأدخل النار . فأجابه النبي ﷺ بقوله : « **بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ولا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه** » .

يالحكمة النبوة في حق الأبوة ! يتآمر ابن أُبي على رسول الله

---

(١) سورة المنافقون الآيات (٨ ، ٧) .

والمؤمنين ، ويؤلب عليهم الأعداء ويحرض قومه على إخراجهم من المدينة ، فيتحمس ولده المؤمن عبد الله رضي الله عنه إلى قتله انتصارًا لدين الله وتأييدًا لرسوله وللمؤمنين ، فيمنعه النبي من ذلك وإن يكن أبوه رأس المنافقين ومن أصحاب الجحيم .

هذا درس بليغ يلقيه النبي ﷺ على عبد الله في ملأ من قومه ليعلم الناس أن الإحسان إلى الوالدين وفاء للدين ، ولا يمنع من وفائه اختلاف العقائد والأديان .

* * *

البـــر بالأم

فرض الله على الولد الإحسان إلى والديه وجعل طاعتهما واجبة في كل ما يأمران به ، من غير جدل ولا مناقشة ولا تردد إلا ما كان منها في معصية . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَوَصَّينا الإنسانَ بوالديْهِ حَمَلتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْن وَفِصَالُهُ في عَامَيْنِ أنِ اشْكُرْ لِي وَلوَالِدَيْكَ إلَيَّ الْمَصيرُ . وَإن جَاهَدَاكَ عَلَى أن تُشْرِكَ بي ما ليْسَ لَكَ بِهِ عِلْم فلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا في الدنيا مَعْروفًا واتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلونَ ﴾[1] . أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين مع تقديم الشكر لهما ، ويعني هذا أن تطيعهما ، وتخدمهما ، وتنفق عليهما . ثم تشكرهما على قبول خدمتك وإنفاقك ، تشكرهما لأنهما رضيا بك خادمًا لهما ومنفقًا عليهما ، تشكرهما لأنهما جعلاك موضع ثقتهما ومحط

(١) سورة لقمان آية ١٤- ١٥ .

آمالهما ، تشكرهما لأنهما بذلا من أجلك النفس والنفيس ، والصحة والراحة ، واكتفيا منك بجزء يسير مما أسدياه إليك من معروف ، وسامحاك بما لهما عليك من حقوق .

أما الوالدة فقد حملتك في بطنها تسعة أشهر ، تزيدها بنموك ضعفًا ، وتحملها فوق طاقتها عناء ، وهي الضعيفة الجسم ، الواهنة القوة . ثم أخرجتك ، فيئست في خروجك من حياتها ، فلما بصرت بك إلى جانبها نسيت آلامها ، وعلقت فيك آمالها ، ورأت فيك بهجة الحياة وزينتها ، ثم انصرفت إلى خدمتك ليلها ونهارها ، تغذيك بصحتها وتنميك بهزالها ، وتقويك بضعفها ، تخاف عليك رقة النسيم وطنين الذباب ، وتؤثرك على نفسها بالغذاء والراحة . فلما تم فصالك في عامين وبدأت بالمشي ، أخذت تحيطك بعنايتها ، وتتبعك نظراتها ، وتسعى وراءك خوفًا عليك ، وبقيت ترعاك وتحنو عليك حتى آخر لحظاتها من الدنيا . ومن هنا قدمها الله تعالى في الطاعة على أبيك ، ووصاك بها رسول الله ﷺ بأكثر مما وصى بأبيك . والأحاديث في هذا الشأن كثيرة ، نروي الآن بعضها

ليتعظ الأبناء ويعرفوا حقوق أمهاتهم عليهم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « **أمك** » . قال : ثم من ؟ قال : « **أمك** » . قال : ثم من ؟ قال : « **أمك** » . قال : ثم من ؟ قال : « **أبوك** »[١] .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول الله من أبر ؟ قال : « **أمك** » . قلت : من أبر ؟ قال : « **أمك** » . قلت : من أبر ؟ قال : « **أمك** » . قلت : من أبر ؟ قال : « **أباك ثم الأقرب فالأقرب** »[٢] .

هذان الحديثان يبينان بوضوح ما تستحقه الأم من بر وصلة ، وخدمة وطاعة ، لقاء ما بذلته من جهد ونصب ، فخصها الشرع بثلاثة أضعاف ما خص به الأب ، وجعل للأب نصيبًا واحدًا لقاء إنفاقه وعطفه وتوجيهه ، ربعًا واحدًا .

---

(١) البخاري ج٤/٤٧ .

(٢) الأدب المفرد للبخاري ١/٤٤ ورواه أبو داود والترمذي ، وصححه الحاكم .

عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال : شهدت رسول الله ﷺ في حجة الوداع وهو يقول : « **أمك وأباك وأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك** »[١] .

هذا رجل وعى الإِيمانَ قلبُه فلم يرد أن يكون لأحد من ذويه حق عليه فجاء يسال النبي ﷺ عن ترتيب درجاتهم في الاستحقاق ، مخافة أن يجاوز الحد ، فيقدم الحسن على الأحسن فينقصه حقه ، فبين له أن أحق الناس بالبر والإِحسان الأم ، فإنها الأَولى والأَولى ، ويتلوها الأب ، ثم الأخت فالأخ ، ثم الأقرب فالأقرب .

سبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه ، وشفقتها وخدمتها ، ومعاناة المشاق في حمله ثم وضعه ثم إرضاعه ، ثم تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك فهي إذًا أحق الناس بالبر والإِحسان وهي الأُولى والأَولى ويتلوها الأب ثم الأخت فالأخ ، ثم الأقرب فالأقرب .

---

(١) رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح - (مجمع الزوائد ج٨/ ١٣٩) .

أوصى الرسول ﷺ بالأم ثلاثًا لأنها أحق بالبر من الأب ، والوصية وصية فرض لا ندب ، وهي من باب أداء الدين لا من قبيل التصدق والمعروف .

إن في تقديم الأم على الأب حكمة بالغة ، فهي - بالإضافة إلى ما تبذله من جهد يفوق جهده - بحاجة إلى من يعولها ويبرها ، لأنها ضعيفة الجسم عديمة الكسب ، ومن أولى ببرها من ابنها ؟ ومن أحق بخدمتها والإحسان إليها منه ؟

(قال الحسن البصري : حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم) .

(قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن لي أمًّا بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري مطية لها فهل أديت حقها ؟ قال : لا ، لأنها كانت تصنع بك ذلك ، وهي تتمنى بقاءك ، وأنت تصنعه وتتمني فراقها) .

فالأم تنظف ولدها ، وتزيل عنه الأقذار ، غير مشمئزة ولا متأففة ، فإذا تقدمت بها السن ، وحل بها الضعف واضطر إلى تنظيفها يومًا امتُعِض وجهه ، واستقذرت نفسه . فأين من حنانها حنانه ؟

عن محمد بن سيرين قال : كنا عند أبي هريرة رضي الله عنه فقال : اللهم اغفر لأبي هريرة ، ولأمه ، ولمن استغفر لهما . قال محمد : فنحن نستغفر لهما حتى ندخل في دعوة أبي هريرة)[1] .

هذا مثال صادق للولد البار ، لا يدع فرصة تستفيد منها أمه خيرًا إلا وخصها بها ولا دعوة صالحة إلا وسألها لها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة . فدعوتها يومًا فسمَّعتني في رسول الله ﷺ ما أكره . فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي فقلت : يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره . فادع الله تعالى أن يهدي أم أبي هريرة . فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم اهد أم أبي هريرة** » . فخرجت مستبشرًا بدعوة النبي ﷺ . فلما جئت فصرت إلى الباب وقربت منه فإذا هو جحاف . فسمعت أمي خشف قدمي فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت

(١) الأدب المفرد للبخاري ج ١/١١٢ .

خضخضة الماء . فاغتسلتْ ولبستْ درعها ، وعَجِلتْ عن خمارها ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح . فقلت : يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة . فحمد الله وقال خيرًا . قال : فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إلينا . فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم حبب عُبيدك هذا وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين ، وحبب إليهما المؤمنين** » . فما خلق من مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[(١)] .

وكان أبو هريرة إذا دخل إلى أرضه بالعقيق صاح بأعلى صوته : (السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا أماه فتقول : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فيقول : رحمك الله كما ربيتني صغيرًا . فتقول : يا بني وأنت فجزاك الله خيرًا ورضي عنك كما بررتني كبيرًا)[(٢)] .

---

(١) أخرجه مسلم - (جامع الأصول ج ١٢/ ٩٢) .
(٢) الأدب المفرد للبخاري ١/٦٧ .

ما أجمل هذه المحاورة !! وما أبدع ما تحمله في طياتها من معاني الإنسانية السامية ! مناجاة بليغة ، فيها تحية القلب وولاء النفس ، واعتراف بالجميل ، وشكر على الإحسان . وفيها رد التحية بمثلها من قلب رؤوم وأم حنون . ومقابلة الإحسان بالإحسان ، والدعاء بالخير لمن حفظ الوداد والمعروف . وهكذا فليكن الأبناء .

عن وهب بن منبه قال : إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل فقال : يا رب بم تأمرني ؟ قال : بأن لا تشرك بي شيئًا . قال : وبم ؟ قال : وببر والدتك . قال : وبم ؟ قال : بوالدتك . قال : وبم ؟ قال : بوالدتك (رواه أحمد في كتاب الزهد) .

لا تعجب أيها الأخ إن أوصى الله تعالى موسى عليه السلام بأمه خيرًا ، فموسى لم يخرج عن الطبيعة البشرية من جهة ، وهو قدوة لأمته من جهة أخرى ، ففي توصية الله إياه ذكرى له وتعليم للناس ، وإذا شرط الله تعالى أن يكون رضاه منوطًا برضاها فذلك إكرام منه ورحمة ، ليعرف الأبناء قيمتها ، ويعملوا على برها وإرضائها .

واستمع يا أخي إلى كلمة سيدنا علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم وقد ضرب لنا المثل الرائع في بر الوالدة حين قيل له : أنت من أبر الناس ، ولا نراك تؤاكل أمك . فقال : (أخاف أن تسبق يدي إلى ما قد سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها)[١] . لا تعجب من هذا الجواب ، فقائله من بيت النبوة نشأ في الإسلام على التقوى ، وعرف حق أمه عليه فأقام لنفسه حدًّا دونه : عرف أن البر لا يكون بالكلام ، وإنما هو اطمئنان في النفس ، واعتراف بالفضل ، ونكران للذات . وأن الرضا لا يكون باللسان ، وإنما هو شعور يتدفق من القلب ويجري مع الدم فينبسط له الوجه ويبش .

عرف أن البر بالأم أن يشعر الولد بشعورها ، ويدرك بحدسه ما يجول في نفسها ، ويفهم من نظراتها مرادها ، فإذا فقد هذه المعاني فقد فقد حقيقة البر . عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **دخلت الجنة فسمعت قراءة فقلت من هذا ؟** » فقيل : حارثة بن النعمان . فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) المحاسن والمساوئ ٥٥١ .

«كذلكم البر. وكان أبر الناس بأمه»[١].

حنان الأم:

مسكينة هذه المخلوقة التي تسمى (أمّا) كم تقاسي من عنت وشدة في سبيل ولدها، منذ استقراره نطفة في رحمها حتى انتهاء لبثها في الدنيا؟ تحمله في بطنها، فيزداد نموه مع الأيام، ويزداد ثقله وتقاسي من مرارة الوحام والقيء والحب والكره ما لا يوصف. ثم يبدأ بالحركة فيجول في بطنها ليلًا ونهارًا. يتجمع في ناحية منه فيضغط عليها كأنما يحاول تمزيق أحشائها، ثم يتحول إلى ناحية أخرى فيفعل بها كما فعل بالأولى. وهكذا لا يدعها تستريح لحظة، فإذا هدأ عن الحركة قلقت عليه، فأسرعت إلى القابلة تشكو أمرها، فإذا اطمأنت على سلامته فرحت واستبشرت. ثم ينبت شعره فتقاسي منه ما لا يستطيع أحد وصفه، وينمو جسمه على حساب جسمها، ويدفع بطنها إلى التوسع، فتقاسي من ألم توسعه أكثر مما يقاسي أحدنا لو مط جلدة بطنه. ولا يدع الجنين أمه تهنأ في

(١) رواه الإمام أحمد وصحح الحافظ في الإصابة إسناده.

طعام أو تهدأ في نوم ، وهو جزء عالق بها ، ولكنه جزء مزعج مضن فهو منها كالرأس المصدوع ، واليد المحمومة ، والعين الرمدة ، تؤلم في الحركة والسكون ، والنوم واليقظة ، والمشي والجلوس ، إلا أن ألمها يخف تدريجاً ، وألم الجنين يزيد تدريجًا .

لو أن شابًا قويًا حمل (كيلو غرامًا) في يده اليمنى وسار به ، فهل يستطيع المضي في السير والكيلو في يمناه من غير أن ينقله إلى يسراه ؟ الجواب طبعًا : لا . وهذا مثال واقعي محسوس فما بالك بهذه المرأة التي تحمل في بطنها عدة كيلوات لا تنقلها من طرف إلى طرف ، ولا من كتف إلى كتف . أليست تقاسي في هذا الشأن ما لا يقاسيه أقوى الرجال ، وهي الواهية الواهنة الضعيفة ؟ فإذا حل بها الشهر التاسع ، وأزفت ساعة خروجه إلى الدنيا ، حلت الطامة فلا هو براغب في البقاء في الأحشاء ، ولا هو براغب في الخروج إلى دار الفناء . وهنا الشدة التي لا تطاق ، والمأزق الذي لا يسهل ، والعقبة التي لا تذلل . ثم لا يخرج في أكثر الأحيان إلا قسرًا

وإرغامًا ، فيمزق اللحم أو يبقر البطن أو تسلط عليه آلة الضغط ، والطبيب يقطع لحم أمه ، والقابلة تجهد في سحبه . ثم يتسابق وروحها في الخروج ، وكثيرًا ما يسبق الروح ، تموت الأم ويحيى هو . وإذا كان لها فسحة في الأجل أفاقت بعد هذه المعركة اللاهبة ، حتى إذا ما رأته إلى جانبها تبسمت وقالت له : (تقبرني) . يا ألله ما هذا الحنان ؟ ! وما هذا الإيثار ؟ ! تقاسي منه ما تقاسي ، ثم تتمنى أن تموت في حال حياته ، وأن يقبرها بيديه .

لو أنصف الأبناء لما تركوا أمهاتهم يمشين على الأرض ، ولغسلوا أقدامهن بدموع عيونهم .

يخرج الولد إلى الدنيا وتخرج معه همومه من أحشاء أمه لتستقر في قلبها مع محبته . وهنا تبدأ حياة مُرة جديدة . فتقاسي الأم في إرضاعه وتربيته ما ينسيها آلام الحمل والولادة .

لو أن أمك مرضت فهل تبقى بجانب سريرها ليلتين متتاليتين من غير أن تنام ؟

ولو أنه غمض لك جفن فهل تهجر نومك مسرعًا لتلبي

نداءها ؟

ولو أنك فعلت ذلك فهل تنهض مسرورًا كما كانت تنهض هي من أجلك ؟

ولو أصاب ثوبها نجاسة فهل تزيلها عنه مرة واحدة كما كانت تزيل نجاستك بالليل والنهار ؟

لأضرب لك أمثلة أسهل من هذه بكثير :

لو أنها وهي في حال صحتها أخذت بالملعقة قليلًا من الطعام فتناولت بعضه ودفعت إليك الباقي فهل تأكله ؟

ولو أن لقمة سقطت من فمها على الأرض فهل تتناولها فتجعلها في فمك ؟ ولو أن إنسانًا أطعمك سكرة أو قطعة شوكولاتة فهل تخبئها لها ؟

ولو أنها خرجت مرة إلى السوق وتأخرت عن العودة فهل تتردد بين الباب والنوافذ وقلبك يهلع فرقًا عليها ؟ .

ولو أنك تزوجت ، ورغبت أن تحضر معك شيئًا من الفستق أو اللوز أو السكاكر فهل ترغب أن تدفعه إليها عن طيب نفس منك ، أم تدسه في جيبك ، وتدخل به مباشرة إلى غرفتك ،

لئلا يراك أحد؟

ولو أنها تخاصمت مع زوجتك يومًا وكان الحق عليها فهل تصفح عنها؟ أم تؤنبها وترفع صوتك عاليًا وتغضب؟

ولو أنها مرضت فاشتد بها المرض فهل تخشى عليها الموت كما تخشاه على ولدك المريض؟

أنصف أيها العاقل أجب نفسك، ثم انظر مدى وفائك لها، وعطفك عليها، وإحسانك إليها، ولا تنس أنك غبي جاهل تقرض ولدك الإحسان وأنت على علم أنه لن يفيك ولا تفي أمك إحسانها إليك، وقد علمت أن لها عليك أفضالًا لا تحصى.

مسكينة هذه الأم! فهي على الرغم مما تقاسي في سبيلك، وما تلقاه من سوء معاملتك وقلة رعايتك، وإيثارك عليها زوجتك وولدك، لا تزال تتفانى من أجلك وتخشى عليك، وتصفح عنك، وتتناسى سوء معاملتك في سبيل سعادتك.

ذكر القشيري أن امرأة جاءت بقي بن مخلد (الحافظ صاحب التفسير والمسند) فقالت له: إن ابني قد أسرته الفرنج – وإنّي لا أنام الليل من شوقي إليه – ولي دُويرة أريد أن

أبيعها لأفتكه بها ، فإن رأيت أن تشير إلى من يأخذها ويسعى في فكاكه . فليس لي ليل ولا نهار ولا صبر ولا قرار . فقال : نعم ، انصرفي حتى ننظر في ذلك إن شاء الله تعالى . وأطرق الشيخ وحرك شفتيه يدعو الله عز وجل لولدها بالخلاص فذهبت ، فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها فقالت : اسمع خبره يرحمك الله تعالى . فقال : كيف كان أمرك ؟ فقال : إني كنت فيمن يخدم الملك ونحن في القيود . فبينا أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيد من رجلي . فأقبل على الموكّل بي فشتمني وقال : فككت القيد من رجليك . فقلت : لا والله ولكن سقط ولم أشعر ، فجاءوا بالحداد فأعاده ، وسمّر مسماره وأيده ثم قمت فسقط أيضًا فسألوا رهبانهم فقالوا : ألك والدة ؟ فقلت : نعم . فقالوا إنه قد استجيب دعاؤها له فأطلقوه فأطلقوني وخفروني إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام . فسأله بقي عن الساعة التي سقط القيد من رجليه فيها فإذا هي الساعة التي دعا له فيها[1] .

---

(١) نفخ : ج ٣/٢٧٤ .

حنان الأم عظيم فمن ذا الذي يحنو عليك مثلها ؟ وأي مخلوق في الدنيا يعطيك من نفسه وإن لم تعطه من نفسك ، ويؤثر رضاك على سخطه ، ويتنازل عن حقه في سبيل راحتك غير أمك وأبيك ؟ طوبى لمن كان له أم وكان بارًّا بها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسي ابن مريم ، وصاحب جريج وكان جريج رجلًا عابداً ، فاتخذ صومعة ، فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي. فقالت : ياجريج ! فقال : يارب أمي وصلاتي . فأقبل على صلاته . فانصرفت . فلما كان من الغد أتته وهو يصلي . فقالت ياجريج فقال : يارب أمي وصلاتي ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت . فلما كان من الغد أتته ، وهو يصلي . فقالت : يا جريج ! فقال : أي رب أمي وصلاتي ، فأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم لا تمته حتي ينظر إلى وجوه المومسات . فتذاكر بنو اسرائيل جريجاً وعبادته . وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم . قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعيًا كان**

يأوي إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها ، فوقع عليها ، فحملت فلما ولدت قالت : هو من جريج . فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه فقال : ما شأنكم ؟ قالوا زنيت بهذه البغي فولدت منك . فقال : أين الصبي ؟ فجاءوا به . فقال دعوني حتي أصلي ، فصلى . فلما انصرف ، أتى الصبي ، فطعن في بطنه وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال فلان الراعي قال : فأقبلوا على جريح يقبلونه ويتمسحون به فقالوا : نبني صومعتك من ذهب . قال لا . أعيدوها من طين كما كانت »[1] . وفي رواية البخاري : « أنه مر على المومسات فرآهن فتبسم .. فقال له الملك : فما الذي تبسمت ؟ قال : امرًا عرفته ، ادركتني دعوة أمي ، ثم أخبره » .

هذا جريج العابد الزاهد يبتليه الله تعالى بمروءته وعفته وطهارته ، وهي أغلى شيء عنده : لأنه لم يجب نداء أمه ولم يلب طلبها . وكثيرًا ما تكون الأم في ضيق أو عسر ، فتستغيث

---

(١) صحيح مسلم ج ٤/٨ .

بابنها وهو أحب الناس إليها ، فإن لم يغثها كان ذلك عقوقًا منه ، وإنَّ بعض الأولاد تناديهم أمهاتهم فيسمعون ولا يجيبون ، وكأن في آذانهم وقرًا . أرأيتم أمًا استنجد بها ابنها فلم تنجده؟ أو صرخ فلم تسرع إليه؟ أليس من المروءة أن يعاملها بما تعامله به؟ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ .

عن معاوية بن جاهمة السلمي : أن جاهمة رضي الله عنه أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أردت الغزو وجئت أستشيرك . فقال : « **هل لك من أم؟** » قال : نعم . قال : « **الزمها فإن الجنة عند رجليها** »[1] .

إن انصراف الولد بكليته إلى خدمة أبويه . وقيامه بشؤونهما . وطاعته أوامرهما واعترافه بما لهما عليه من حق وفضل – ولا سيما والدته – مدعاة إلى فوزه برضى الله تعالى ودخوله الجنة .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : أقبل

---

(١) رواه أحمد والنسائي واللفظ له وابن ماجه والحاكم ، وقال صحيح الإسناد (نبل الأوطار ٧/ ٢٣١) .

رجل إلى نبي الله ﷺ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله . قال : « **فهل من والديك أحد حي ؟** » قال : نعم بل كلاهما قال : « **فتبتغي الأجر من الله ؟** » قال : نعم . قال : « **فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما** »(١) .

إن الأجر الذي تطلبه ليس وقفًا على الجهاد ، ولا قصرًا على الهجرة . فهناك عمل آخر هو خير وأبقى يختص بك وحدك ، ولا يرتبط بغيرك ، ولا يمضيه أحد سواك . فيه الأجر الذي تطلبه ، والثواب الذي تبتغيه . ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما ، والزم خدمتهما وأطع أمرهما ، وأدخل السرور على قلبهما ، فإن عملت ذلك عدل عملك الجهاد وفاقه .

* * *

(١) صحيح مسلم ج ١٦/ ١٠٤ .

البـــر بالأب

في القرآن الكريم آيات تأمر ببر الوالدين معًا ، وآيات تفرد كلًّا منهما بالبر ، إذ في الجمع والإفراد دليل على مدى اهتمام الشارع بهما ، كل فيما يخصه من جهة ، وفيما يخصهما معًا من جهة أخرى . وقد مر بنا شيء من برهما معًا ، فلنذكر الآن بعض ما جاء في بر الأب وحده :

إسماعيل عليه السلام :

إن أبلغ مثل يضربه القرآن الكريم في طاعة الوالد وبره قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام ، وهي قصة شهيرة معروفة ، ذكرها القرآن بايجاز بلاغته ، فقال تعالى :

﴿ فَبَشَّرْناه بِغلام حَليم . فلمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى في المَنَامِ أَنِّي أَذبَحُكَ فانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُني إن شَاءَ الله مِنَ الصَّابِرِين . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ للْجَبِينِ . ونَادَيْناهُ أَن يا إبراهيمُ . قَدْ صَدَّقتَ الرُؤيا

إنَّا كذلك نَجْزِي المحسنين . إنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ المبِينُ . وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[١] .

كان لإسماعيل عليه السلام حين البلاء ثلاث عشرة سنة ، في سن يبدأ فيها طور المراهقة ، فتطيش سهام الأولاد ، وتغلب عليهم الرعونة ، ويتولاهم الجموح ، ويغمر حياتهم اللهو واللعب ، ولا يصدر عنهم عمل بروية ، أو قول بتعقل ، أوتصرف بحكمة لا يشعرون بوطأة الحياة ، وثقل العيش ، ومسئولية العيال ، لقد بدأوا يشبون عن الطوق ، وينطلقون من سجن الدار ، وأخذوا يتمردون ليبنوا بأنفسهم شخصياتهم ، ويفرضوا على الناس اعتبارهم . وهذه صفات معظم الأولاد . فإذا تصرف أحدهم تصرف العقل ، ونطق نطق الحكيم ، وناقش مناقشة المفكر ، وأطاع والديه إطاعة البنان ، كان مثالًا للنبوغ والبر والفهم . وهكذا كان سيدنا إسماعيل عليه السلام ، لم يفتنه الشيطان ولم يشككه في حنان أبيه ، ولم يزغه عن أمر ربه . أخبره أبوه بالرؤيا ، وهي من الوحي الإلهي فلم يجزع ولم

---

(١) سورة الصافات الآيات ١٠١-١٠٧ .

يخالف ، بل استسلم ، استسلم لأمر الله تعالى ثم لأمر أبيه ، ولم تقف به نفسه العالية عند هذا الحد ، بل أعان أباه على الطاعة ، وشجعه على تنفيذ أمر ربه . فقال :﴿ **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** ﴾[1] أما أنا فقد رضيت بما قدره الله لي ، وما ارتأيته أنت لي ، وإن أبت عليَّ نفسي فسأرغمها بالصبر ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾[2] . حتى إذا أسلما إلى الله أمرهما ، وطابت النفس بحكمه ، ورضيت بقضائه فداه الله بذبح عظيم .

هذه أروع قصة في الحياة البشرية ، وأعظم مثل على طاعة الله وطاعة الوالد . فيها الإيمان التام ، والبر البالغ . فيها حكمة الله ، وشفقة الوالد ، وطاعة الوَلد ، فيها الإخلاص في الدين ، والقول اليقين . والصبر المتين ، فيها مثال رائع للإنسانية الكاملة نبينه فيما يلي :

كان تحت سيدنا إبراهيم عليه السلام امرأتان : هاجر وله

---

(١) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

منها إسماعيل، وسارة ولها منه إسحق. فذهب بهاجر وابنها من بلاد الشام، حيث طيبات العيش، ولذات الحياة، والماء والنبات، والطقس الجميل، إلى بلد صحراوي، لا ماء فيه ولا نبات، لا زرع فيه ولا ضرع. فتركهما هناك، وأوكل إلى الله تعالى أمرهما، ثم عاد إلى أهله. لنقف هنا قليلًا ونتساءل: لو قام رجل في زمننا الحاضر بهذا الإجراء فماذا تكون النتيجة؟

الجواب بسيط جدًا ويتلخص فيما يلي:

أولًا: كيل الدعوات عليه ليلًا ونهارًا بغير حساب.

ثانيًا: وصمه بقلةالعقل وبالجنون.

ثالثًا: قذف الضرة، والنيل من شرفها وطهارتها.

رابعًا: تزويدها بالدعوات والشتائم والسباب.

خامسًا: إشعال نار الحقد في قلب الابن على أبيه.

سادسًا: بث الكراهية لزوجة أبيه وابنها (أخيه) في قلبه.

أما ما يستنتج من قصة إسماعيل عليه السلام فهو ما يلي:

أولًا: تنفيذ إبراهيم أمر ربه.

ثانيًا: معرفة هاجر حقوق زوجها[1]، وواجباته عليها،

---

(١) لم تكن هاجر زوجة وإنما كانت أم ولد!

وانصياعها لأمر الله تعالى .

ثالثًا : رسوخ طاعة الوالد في نفس إسماعيل رسوخًا لا تزعزعه الأهواء والنزعات ووساوس الشيطان .

هذا هو الفارق بين أبناء هذا الزمان وبين إسماعيل عليه السلام ، فارق بين الظلام والنور ، والطيش والروية ، والحمق والحلم .

أبناء هذا الزمان فسدت أذواقهم ، وماتت مشاعرهم ، واضمحلت عزتهم ، لا ينفذ أحدهم أمر أمه إلا إذا دعت عليه ، وبلغت صيحاتها ودعواتها أقصى الحي ، ولا يلبي طلب أبيه إلا إذا عبس في وجه وقطب ، وانهال عليه سبًا وضربًا وقلمًا نجد ولدًا يكتفي بإشارة ، ويفهم بنظرة ، ويتعظ بتأديب حسن .

إن إبراهيم عليه السلام بلغ بره بأبيه مبلغًا عظيمًا ، كان يدعو أباه آزر إلى الجنة ويدعوه أبوه إلى النار ، يدعو أباه إلى عبادة الله وحده ، وهو يدعوه إلى عبادة الأصنام . يغضب أبوه ويهدد ويتوعد ، ﴿ **أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا** ﴾ (مريم – ٤٦) فيأخذه إبراهيم

بالخلق والرفق ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾ . (مريم - ٤٧)

الله أكبر ! ما أعظم بر الولد حين يقابل أباه الغاضب الثائر بالهدوء وضبط الأعصاب والأناة ! وما أجمل أن يصيح بك أبوك ثم يتقدم نحوك رافعًا يده للضرب وأنت منكب على قدميه بالتقبيل ! .

إن الحياة دين وقضاء والجزاء من جنس العمل . فما دام إبراهيم عليه السلام بارًا بأبيه إلى درجة المثالية فلا عجب أن يرزقه الله تعالى إسماعيل عليه السلام بارًا به فيكافئه بمثل إحسانه ويجعله أطوع له من بنانه ، هكذا والله فعل أبي بجدي ، وهكذا فعل بي اولادي ، وأسأل الله تعالى أن يجعلهم من سعداء الدنيا والآخرة .

أوصاني أبي رحمه الله تعالى في صغري أن أمشي خلفه بخطوة ، ومات ولي من العمر خمسة وعشرون عامًا وأنا يومئذ أب ، ولم أمش إلى جانبه يومًا ، وعشت حياتي معه فلم أنم وهو جالس . ولم أمد رجلي أمامه ، ولم أحتج في إيقاظي للصلاة

إلى أكثر من صوت واحد إذا اقتضى الأمر. فهل يعامل الأولاد آباءهم بمثل ما كنت أعامل أبي ؟.

(عن هشام بن عروة عن أبيه - أو غيره - أن أبا هريرة رضي الله عنه أبصر رجلين، فقال لأحدهما : ما هذا منك ؟ قال : أبي . فقال : لا تسمه باسمه، ولا تمش أمامه، ولا تجلس قبله) .

(وقيل لعمرو بن زيد : كيف كان بر ابنك بك ؟ قال : ما مشيت نهارًا قط إلا وهو خلفي، ولا ليلًا إلا مشى أمامي، ولا رقى سطحًا وأنا تحته) .

(وعن أبي غسان الضبي قال : خرجت أمشي مع أبي بظهر الحرة، فلقيني أبو هريرة فقال : من هذا ؟ قلت : أبي . قال : لا تمش بين يدي أبيك ولكن امش خلفه أو إلى جانبه، ولا تدع أحدًا يحول بينك وبينه، ولا تمش فوق إجّار (سطح) أبيك تخفه، ولا تأكل عَرْقًا قد نظر أبوك إليه لعله قد اشتهاه) .

هذا هو النهج الذي يجب أن يسلكه الولد مع أبيه، يرى نفسه أقل منه فلا يمشي أمامه، ويوقن أنه قطعة منه فلا يدع

أحدًا يفصل بينهما ، ويعرف أنه دونه فلا يعلوه في سطح ولا مجلس ، ويعترف أنه يعيش على فضله وإحسانه فلا يتناول ما اختصه لنفسه .

(قال المأمون رحمه الله تعالى : لم أر أحدًا أبر من الفضل ابن يحيي بأبيه . بلغ من بره أن يحيي كان لا يتوضأ إلا بماء مسخن ، وهما في السجن ، فمنعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فقام الفضل - حين أخذ يحيى مضجعه - إلى قمقم كان يسخن فيه الماء ، فملأه ثم أدناه من نار المصباح ، فلم يزل قائمًا وهو في يده حتى أصبح)[1] .

أليس الفضل في هذا العمل شبيهًا بالرجل الذي حلب لوالديه فوجدهما نائمين ، فقام عند رأسهما حتى استيقظا ، فكان جزاؤه من الله الفرج والرضى ؟ أليس عمل كهذا يعتبر مثالًا رائعًا في البر ؟ .

عليكم يا معشر الأبناء أن تتأسوا بالفضل في بره لأبيه إن أردتم أن تكونوا من أهل الوفاء والفضل .

---

(١) عيون الأخبار المجلد الثالث ص ٩٧ .

(قيل لحكيم: كان أبوك أجمل وأعقل وأفضل منك. فقال: لأني كنت به ولم يكن بي فهو أولى بالكمال مني)[١].

(وحضر صالح العباسي مجلس المنصور، وكان يحدثه، ويكثر من قوله: (أبي رحمه الله). فقال له الربيع: لا تكثر الترحم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين. فقال له: لا ألومك فإنك لم تذق حلاوة الآباء. فتبسم المنصور وقال: هذا جزاء من تعرض لبني هاشم)[٢].

والولد لا يفي والده حقه، مهما يبذل في سبيله، اللهم إلا في حال واحدة، اعتبرها رسول الله ﷺ مكافأة له، فقال: «**لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**»[٣].

وللوالد حرية التصرف بمال ابنه، كما له أن يسترد منه ما أعطاه. يقول عليه الصلاة والسلام: «**لا يحل للرجل أن**

---

(١)، (٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ج ١/٢٠٣.

(٣) أخرجه مسلم وغيره.

يعطي العطية فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده »[١] .

إلتماس العبر من قصة يوسف عليه السلام في بر الوالد :

في قصة يوسف عليه السلام عظات وعبر ، يتجلى فيها حنان الأب وشفقته ، وتظهر فيها طاعة الوالد فيما أمر ، والمحافظة على المروءة والمعروف :

حبس (بنيامين) أخو يوسف عليه السلام ، لوجود صواع الملك في رحله ، وحاول إخوته استرضاء يوسف واستعطافه ليعفو عنه ، لم يفلحوا . لقد أعطوا أباهم موثقًا أن يعودوا به إليه إلا أن يحاط بهم ، فكيف يعودون الآن بدونه ؟ لقد بذلوا أقصى جهدهم ، وشرحوا ليوسف حال أبيهم الشيخ الفاني ، فلم يقبل رجاءهم ، ولم يرثِ لحالهم[٢] . فلما استيأسوا منه ، وخاب أملهم في تحقيق أُمنيتهم ، قرروا العودة إلى بلدهم

---

(١) رواه الخمسة وصححه الترمذي بلفظ « لا يحل لرجل أن يعطي العطية ثم يرجع ..» نيل الأوطار" ١٢/٦ . .

(٢) لحكمة بالغة قدَّرها الله ؛ قال تعالى عن يوسف « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك » .

لإطلاع أبيهم على ملابسات القضية ، غير أن أكبرهم سنًا أبي أن يعود وقال لإخوانه : ﴿ **ألم تعلموا أن أباكم قد أخذَ عليكم موثقًا مِنَ الله ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين** ﴾[1] ، وقرر البقاء في مصر ، وفاء بوعده الذي قطعه على نفسه . أليس لأبيه عليه حق الطاعة ؟ أليس من العقوق أن يعود وقد أمره ألا يعود ؟ هل يرضي أباه اعتذاره بما جرى لأخيه وما بدر منه ؟ لقد أيقن أن أوامر الأب واجبة الامتثال ، فلن يبرح أرضه ولن يرجع إلى بلده ، إلا أن يصدر أمر أبوي يأذن له بالحضور ، أو يمكث في مكانه ينتظر الأجل ، أو يقضي الله تعالى بحكمه فيفك أسر أخيه ويرجع به إلى أبيه .

هذا ابن بار لم تسول له نفسه مخالفة أوامر والده ، لأن طاعة الوالد من طاعة الله جلّ وعلا ، وقد كان لهذه الطاعة نتيجة حسنة أن تمكن من التعرف على يوسف عليه السلام

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٠ .

فانفرجت الأزمة ، وتحققت الرؤيا .

وهذا مثال آخر للولد البار يؤثر فيه رضى الله على حطام الدنيا ، فرضى الله عنه وآتاه من الدنيا فوق ما كان يحلم به ، ويصبو إليه :

(عن طاووس عن أبيه قال : كان رجل له أربعة بنين فمرض . فقال أحدهم : إما أن تمرضوه وليس لكم من ميراثه شيء ، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء . قالوا : بل تمرضه وليس لك من ميراثه شيء . فمرضه حتى مات ، ولم يأخذ من ميراثه شيئًا . قال : فأتى في المنام فقيل له : ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مئة دينار . فقال : أفيها بركة ؟ قالوا : لا . فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته ، فقالت : خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش بها . فلما أمس أُتي في النوم فقيل له : ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير . فقال : أفيها بركة ؟ قالوا : لا . فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته ، فقالت له مثل ذلك . فأبى أن يأخذها . فأتي في الليلة الثالثة فقيل له : ائت مكان كذا وكذا وخذ منه دينارًا قال : أفيه بركة ؟ قالوا : نعم .

قال : فذهب فأخذ الدينار ، ثم خرج به إلى السوق ، فإذا هو برجل يحمل حوتين فقال : بكم هما ؟ قال : بدينار . فأخذهما منه ، وانطلق بهما إلى بيته . فلما شقهما وجد في بطن كل واحد منهما درة لم ير الناس مثلها . فبعث الملك يطلب درة يشتريها فلم توجد إلا عنده ، فباعها بثلاثين وقرًا (حملًا) ذهبًا . فلما رآها الملك قال : ما تصلح هذه إلا بأخت ، فاطلبوا أُختها ولو أضعفتم الثمن . فجاءوه ، فقالوا : أعندك أُختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : نعم . فأعطاهم الثانية بضعف ما باع به الأولى) [١] .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : رضى الرب في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد [٢] .

والوالد لا يرضيه إلا أن يرى من ابنه إقبالًا عليه بقلبه ونفسه ، وانصياعًا منه لأمره ، وسعيًا لتحقيق ما يسره ويبهجه ، وغاية البر أن يقضي له حاجته من غير أن يسأله قضاءها ، ويقدم إليه مالا يبين له حاجته إليه ، ويعطيه من غير أن يطلب منه .

---

(١) المحاسن والمساوئ ص ٥٤٨ .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط - (مجمع الزوائد ٨/ ١٣٦) .

كثيرًا ما يكون الأب فقيرًا، فلا يترك مالًا لأولاده بعد موته، وإنما يقول لهم: (سأخلف لكم الرضى بدلًا من المال).

وكثيرًا ما يكون الأب غنيًا، فيطمع به بعض أولاده، ويتسلطون على ماله، بإكراهه أو بإستغلال ضعفه، ويحرمون إخوتهم - مع بر هؤلاء بأبيهم - من الإرث. حتى إذا شعر الأب بالكارثة، وانكشفت لديه المؤامرة، زود المحرومين بالرضى، كما تزود أولئك بالمال. ثم تدور الأيام. فيصبح الغني فيهم فقيرًا، والفقير غنيًا، والوارث معدمًا والمحروم ثريًا.

سلوا آباءكم أيها الأبناء عن أمثال هؤلاء يخبروكم إنهم كثيرون، أليس هذا دليلًا على أن الرضى خير من المال، وأنه يدوم لصاحبه بدوام حياته، وأن المال يزول عن صاحبه بزوال أمسه.

لا تحسبوا المال ثروة دائمة، فالمال يجيئ ويذهب، والرجال كالأشجار يكسون ويعرون. وكم من غني كبير اصابت ماله جائحة فاستعطى؟ وكم من فقير معدم بسط الله له في الرزق فأصبح يشار إليه بالبنان؟.

لا تخالوا المال كل شيء في الحياة ، فقد يكثر ولكنه ينفق على الصحة ، ويبقى صاحبه عليلًا ، محرومًا لذة الطعام والشراب ، ويتمنى لو فقد ماله على أن تعود إليه صحته . وكم سمعنا أن غنيًا حسد عاملًا على طعامه البسيط ، وتمنى أن يكون له مثل صحته فيعمل بيده مثله ؟

قد يقل المال ، ويقنع صاحبه بما آتاه الله فيكون سعيدًا ، والغنى هو الرضى ، ورضى الوالدين خير من الدنيا وما فيها . يقول عليه الصلاة والسلام : « **ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس** »[1] . ولئن كان المال ذخرًا في الدنيا ، فرضى الوالد ذخر في الدنيا والآخرة . والوالد شجرة وارفة تأوي إلى ظلها ، وحصن منيع تلوذ به ، وسيف قاطع يذب عنك ، وراع يحميك ، ومجرب يسدي إليك الحكمة التي تبصرك بشؤون الحياة ، فإذا فقدته فقد خسرت كل هذه النعم . وكم نعمة لا يعرف المرء قيمتها إلا بعد زوالها ؟ وكم سمعنا الآباء يدعون الله تعالى ألا يحوجهم إلى أولادهم !

---

(١) الأدب النبوي ص ١٨٠ .

(هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يناول رجلًا شيئًا ، فيقول له الرجل : خدمك بنوك ، ويجيبه عمر رضي الله عنه على الفور : بل أغناني الله عنهم)[١] . وكم من أب إحتاج إلى ابنه فضربت عليه الذلة والمسكنة ، وأصبح بعد عزه خادمًا له ، يحمل حوائجه إلى الدار ويجعل نفسه مطية لأولاده الصغار؟ والآباء يدركون مدى المذلة التي تحيق بهم إذا احتاجوا إلى أبنائهم ، ولذا يؤثرون عليها الموت .

ما رأيت أتعس من الآباء! يكدحون ويكدون في شبابهم ليجمعوا المال ، ويقتنوا العقارات . يضربون في الأرض طلبًا للرزق ، ويتحملون أهوال السفر طمعًا في نماء أموالهم وزيادة أرباحهم ، أو يعملون في الحرث فيقاسون حر الصيف وبرد الشتاء وخشونة العيش ، أو في المصنع فتفتك بهم ذراته ودخانه ، وترهق أعصابهم آلاته ومحركاته ، أو يعملون في تفتيت الصخور وتليين الحديد ، أو يعيشون في ذل الوظيفة وقسرها يطبقون من الأوامر ما يرضيهم وما لا يرضيهم ويطيعون

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ج ٢٠١/١ .

الرؤساء ولو كانوا كارهين.

لا أدري لمن يشقى هؤلاء الآباء؟ ألأنفسهم أم لأبنائهم؟ وهل يكدح الرجل العقيم كما يكدح الرجل المعيل؟ لو أطلع الله تعالى على الغيب أبًا فرأى ما سيحل به في كبره، وكيف يعامله بنوه إذا احتاج إليهم لما أنجب ولدًا، ولآثر العقم على الذرية، ولردد قوله من أبطأ في الزواج، فلما سئل عن سبب ذلك أجاب: (أريد أن أسبق أولادي في اليتم قبل أن يسبقوني في العقوق).

أجيبوني معشر الأبناء! هل ينفق الأب على نفسه بقدرما ينفق على أولاده؟ وهل ينفق أولاده عليه في كبره بقدر ما أنفق عليهم في صغرهم؟ الجواب طبعًا: لا. فمتى إذن يفونه حقه إن جعل نفسه خادمًا لهم في صغره وكبره؟ ألم يكن يكفيه من الطعام أقله؟ ومن اللباس أيسره؟ فما باله إذن يجمع هذه الأموال؟ أليس ذلك لأجلكم؟ ينفق عليكم منها في حياته، فإذا مات تقاسمتموها بعده، فنعمتم بها، وحاسبه الله عليها.

أنصف أيها العاقل وقل :

لو أن أباك مرض يومًا فهل تهجر فراشك ليلًا ، وتعطل عملك نهارًا ، وتلزم سريره كما لو كنت أنت المريض ؟ .

ولو أنه تأخر ساعة عن موعد حضوره إلى الدار مساء يوم ، فهل تقلق عليه وتضطرب ، وتحسب لتأخره ألف حساب كما لو تأخرت أنت ؟

كم تخطئ معه فيصفح عنك ؟ وكم يرى منك ما يسيء فيتغاضى عنك ؟

لو أنه اضطر إلى تأديبك يومًا لأشار إلى أمك أن تشفع لك ، ولو بكيت منه لبكى قلبه لبكائك ، ولو نطق لسانه يومًا بالدعاء عليك لانبسط قلبه بالرجاء إلى الله تعالى ألا يقبل منه ما نطق .

هذا رجل يطالب بمال فلا يؤديه ، ويضرب من أجله فلا يسمح به ، فلما أخذ ابنه وضرب جزع . فقيل له في ذلك فقال : ضرب جلدي فصبرت ، وضرب كبدي فلم أصبر[(١)] .

(كتب إبراهيم بن داحة إلى أحد أبويه : « جعلني الله فداءك »

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ج ٢٠١/١ .

فكتب إليه : لا تكتب بمثل هذا فأنت على يومي أصبر مني على يومك) أي إنك على يوم موتي أكثر صبرًا مني علىٰ يوم موتك ، لأن موتي يؤلمك ثم يزول هذا الألم بعد حين ، أما موتك فيجرح قلبي ، وجرح القلب لا يبرأ .

(وقال رجل لعبد الله بن بكرة : ما تقول في موت الوالد؟ قال : ملك حادث . قال : فموت الزوج؟ قال : عرس جديد . قال : فموت الأخ؟ قال : قص الجناح ، قال : فموت الولد؟ قال : صدع في الفؤاد لا يجبر) [(١)] . في موت الوالد انتقال ماله إلى ولده وفي موت الولد جرح في فؤاد الأب لا يندمل .

آباؤكم هم الدار التي تجمع شملكم ، وتحميكم من بأس عدوكم ، وتدفع عنكم آفات الأيام . فإذا هدمت تفرق جمعكم ، واستضعفكم الناس ، وأصبحتم كالأغنام تسير بلا راع فيعيث فيها الذئب .

يحترمكم الناس ويعزونكم إكرامًا لأبائكم ، فإذا فقد

---

(١) من عيون الأخبار ص ٧٤ .

أحدكم أباه شعر بالذل، ووصف بعبارة الأسى : (مسكين، يتيم) .

اتقوا الله في آبائكم، وأدوا إليهم حقوقهم، وأجهدوا أنفسكم في كسب رضاهم، فهم الذين بذلوا أموالهم وسعادتهم من أجلكم، وهم الذين أعطوكم من غير من ولا أذى راجين حياتكم، وتعطونهم مع المن والأذى مترقبين مماتهم . أطيعوهم والتزموا الأدب معهم، ولا ترفعوا أصواتكم فوق أصواتهم، ولا تنظروا إليهم بعين الغضب والاشمئزاز .

عطف الأب :

عطف الأب وشفقته من البديهيات التي لا يختلف فيها اثنان، وجميع الأولاد يقرون بها، والحوادث تؤيدها . ولهذا لم يتعرض القرآن الكريم إلى توصية الآباء بأبنائهم في الإحسان إليهم وحسن معاملتهم، والإنفاق عليهم، والإهتمام بهم، لأن ذلك من الأمور التي تقتضيها الفطرة الإنسانية .

قال محمد بن علي رضى الله عنه : إن الله تعالى رضي

---

(١) سورة التغابن الآية ١٥ .

الآباء للأبناء، فحذرهم فتنتهم ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾[(١)] ولم يوصهم بهم، ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم. وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق، وشر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط.

ويعود السبب في عدم تعرض القرآن إلى توصية الآباء بأبنائهم إلى أمرين:

الأول: هو الرحمة التي أودعها الله تعالى قلب الأب.

ثانيًا: إن الولد جزء من الوالد، والأصل يحن إلى الفرع ويعطف عليه.

وهذه العاطفة الأبوية موجودة عند جميع المخلوقات الحية. وقصة سيدنا يوسف عليه السلام أكبر دليل على حنان الأب وشفقته. فقدْ فَقَدَ يعقوب عليه السلام بصره لفرط بكائه عليه، وما جرى معه من شم ريحه عن بعد جرى أيضًا لأميه الكناني في الحادثة التالية:

وكان أمية بن الأسكر الكناني من سادات قومه، وكان له

---

(١) سورة التغابن الآية ١٥.

ابن اسمه كلاب هاجر إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب ، فأقام بها مدة ثم لقي ذات يوم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فسألهما : أي الأعمال أفضل في الإِسلام؟

فقالا : الجهاد .

فسأل عمر فأغزاه في الجند الغازي إلى الفرس .

فقام أمية وقال لعمر : يا أمير المؤمنين هذا اليوم من أيامي لولا كبر سني ، فقام إليه ابنه كلاب وكان عابدًا زاهدًا فقال : لكني يا أمير المؤمنين أبيع الله نفسي وأبيع دنياي بآخرتي ، فتعلق به أبوه وكان في ظل نخلٍ له وقال : لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين ربياك صغيرًا حتى إذا احتاجا إليك تركتهما .

فقال : نعم أتركهما لما هو خيرٌ لي .

فخرج غازيًا بعد أن أرضى أباه ، فأبطأ ، وكان أبوه في ظل نخل له ، إذا حمامة تدعو فرخها ، فرآها الشيخ فبكى ، فرأته العجوز فبكت وأنشأ يقول :

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتابَ الله لو قبل الكتابا
أناديه فيُعرض في إباء فلا وأبي كلاب ما أصابا

إذا هتفت حمامة بطن وَجٍّ[١] على بيضاتها ذكرا كلابا
فإن مهاجرين تكنفاه ففارق شيخه خَطِئًا وخابا
تركت أباك مُرعَشَةً يداه وأمّك ما تسيغ لها شرابا
تنفّض مهده شفقًا عليه وتجنبه أباعرها الصعابا
فإنك قد تركت أباك شيخًا يطارق[٢] أينقًا[٣] شربا[٤] طرابا
إذا رتُّعن إرقالًا[٥] سراعًا أثرن بكل رابيةٍ ترابا
طويلًا شوقه يبكيك فردًا على حزن ولا يرجو الإيابا
فإنك والتماس الأجر بعدي كباغي الماء يتبع السَّرابا

وكان أمية قد أضرّ (أي عمي) فأخذ قائده بيده ودخل به على عمر وهو في المسجد، فأنشده:

أعاذل قد عذلت بغير علمٍ وما تدرين عاذل ما ألاقي
فإما كنت عاذلتي فرُدّي كلابًا إذ توجه للعراق

---

(١) اسم واد بالطائف.
(٢) يضرب.
(٣) جمع ناقة.
(٤) ضامرة.
(٥) الإرقال: السير السريع.

ولم أقض اللُّبانة من كلابٍ غداةً غد وآذن بالفراق
فتى الفتيان في عسرٍ ويسرٍ شديد الركن في يوم التلاقي
فلا وأبيك ما باليت وجدي ولا شفقي عليك ولا اشتياقِي
وإيقادي عليك إذا شتونا وضمُّك تحت نحري واعتناقي
فلو فلق الفؤاد شديدُ وجدٍ لهمَّ سوادُ قلبي بانفلاق
سأستعدي على الفاروق ربًا له دفع الحجيج إلى بساق[1]
وأدعو الله مجتهدًا عليه ببطن الأخشبين[2] إلى دقاق[3]
إن الفاروقُ لم يردد كلابًا على شيخين هامهما زواق[4]

فكتب عمر برد كلاب إلى المدينة :

فلما قدم ودخل عليه قال له عمر : ما بلغ من برّك بأبيك ؟ قال : كنت أوثره وأكفيه أمره ، وكنت إن أردت أن أحلب له لبنًا أجيء إلى أغزز ناقة في إبله فأريحها وأتركها حتى تستقرّ ، ثم أغسل أخلافها (ضروعها) حتى تبرد ، ثم أحلب له

---

(١) جبل عرفات .

(٢) جبلان بمكة .

(٣) موضع .

(٤) زقا صاح ، وصراخ الهام معروف ؛ وهو من خرافات العرب .

فأسقيه .

فبعث عمر إلى أمية فجاءه فدخل عليه وهو يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى ، فقال له : كيف أنت يا أبا كلاب ؟

فقال له : كما ترى يا أمير المؤمنين .

فقال : يا أبا كلاب ، ما أحب الأشياء إليك اليوم ؟ قال : ما أحب اليوم شيئًا ، ما أفرح بخير ولا يسوؤني شر .

فقال عمر : بل على ذلك[1].

قال : بلى ، كلاب أحب أنه عندي فأشمّه شمة وأضمه ضمّة قبل أن أموت . فبكى عمر .

وقال عمر : ستبلغ ما تحب إن شاء الله تعالى .

ثم أمر كلابًا أن يحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث بلبنها إليه ففعل وناوله عمر الإِناء وقال : اشرب يا أبا كلاب .

فأخذه ، فلما أدناه من فيه قال : والله يا أمير المؤمنين إني لأشمّ رائحة يديْ كلاب .

فبكى عمر وقال له : هذا كلاب عندك وقد جئناك به .

(١) أ ي (مع ذلك ، أخبرني) وهو تعبير يرد عن العرب كثيرًا .

فوثب إلى ابنه وضمه، وجعل عمر والحاضرون يبكون وقالوا لكلاب: الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا، ثم شأنك بنفسك بعدهما، وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه.

وتغنت الركبان بشعر أبيه فبلغه فأنشأ يقول:

لعمرك ما تركت أبا كلابٍ كبيرَ السن مكتئبًا مصابا
وأمًّا لا يزال لها حنينٌ تنادي بعد رقدتها كلابا
لكسب المال أو طلب المعالي ولكني رجوت به الثوابا

وكان كلاب من خيار المسلمين فلم يزل مقيمًا عندهما حتى ماتا [1].

من هاتين القصتين: قصة يوسف عليه السلام وقصة كلاب ابن أُمية ينفطر الفؤاد أسى، وتذوب النفس حسرة، ويخشع القلب القاسي ويلين، وتسخن العين الجامدة وتذرف، ويتدفق من القلب شعور فياض يسيل بالتقدير للآباء والاحترام لهم، والخشوع أمام رأفتهم ومحبتهم، وتنطلق الألسنة بالحمد

(١) نكت الهميان ١٢١، والمحاسن والمساوئ ٢:١٩١، والأغاني ١٨/١٥٧، وذيل الأمالي ١٠٨ وغيرها.

والثناء. أهكذا يقاسي الآباء إن بعد عنهم أبناؤهم؟ ويتملكهم الهلع والجزع إن فرق الدهر بينهم؟ فتبيض العيون، وتسود المآقي، وتتفتت الأكباد، ويتعكر صفو الحياة، وتزول لذات العمر، حنانك يا رب أنت بالآباء أرحم منهم على أبنائهم، فكافئهم عنهم بما يثلج صدورهم ويرضي نفوسهم.

ضاق رجل بالحياة ذرعًا، وسددت في وجهه أبواب الرزق، وله بنيات صغيرات لا يستطيع فراقهن شفقة وحنانًا، ولولاهن لانتشر في أرجاء الأرض يبتغي من فضل الله فقال يومًا:

لولا بنيات كزَغب[1] القطا ... حططن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمض
أنزلني الدهر على حكمه ... من مرقب عال إلى خفض
وابتزني[2] الدهر ثياب الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي

---

(١) الزغب: الشعيرات الصفر على ريش الفرخ.

(١) ابتز: سلب.

عطف البنات :

من طبيعة الأنوثة العاطفة واللين ، ومن طبيعة الذكورة الشد والقسوة ، ومن هنا كانت الأنثى ألين عريكة ، وأرق قلبًا وأسلس قيادة .ولعل حاجتها إلى الرعاية والإنفاق ، وضعفها ع تحمل الأعباء ، وعنصر تكوينها المرن : جعلتها وديعة الطبع سريعة الإجابة ، كثيرة الحذر . وقلما نجد بنتًا مشاكسة جموحة ، عاقة لأبيها ، وإن تكن معاملتها لأمها في كثير م الأحيان قاسية سيئة .

والأم لضعفها وحنانها يطمع فيها أولادها ، ولا يحذرو بطشها ، ولا يخافون أذاها . وإذا ضعفت الرهبة في القلـ انبسط اللسان بالكلام . ومع كل هذا فالبنت أشد عطفًا وحنـ على أُمها ، وأكثر رأفة ورحمة بإخوتها ، وأرحم قلبًا للناس . ل فالأم تفرح إذا ولدت بنتًا لتكون عونًا لها ، وكاتمة سرها ، فإ تزوجت انقطعت معونتها ، وانصرفت إلى زوجها ، وهذه سـ الله في خلقه ، غير أنها لا تقطع من أهلها رباطها ، وتبق شريكة لهم في السراء والضراء ، تشاطرهم الأفراح والأتراح

دخل عمرو بن العاص على معاوية رضي الله عنهما وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: تفاحة القلب. قال: انبذها عنك؟ قال: ولم؟ قال: لأنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. فقال: لا تقل ذلك يا عمرو، فو الله ما مرّض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الأحزان مثلهن، وإنك لواجد خالًا قد نفعه بنو أُخته. فقال له عمرو: ما أعلمك إلا حببتهن لي[1].

ومن قلب صفحات الأيام، واطلع على سجلات الحوادث رأى للبنات مواقف مشرفة تؤيد ما أودع الله فيهن من عاطفة نبيلة، وحنان صادق، وبر كبير. وإليك بعضها:

قال عوانة: بلغنا أن شيخًا من أصحاب معاوية كان يكاتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد كان طعن في السن، فبلغ معاوية خبره، فدعاه. فقال: أيها الشيخ إنك لتكاتب عليًا، ولولا سنك لقتلتك فلا تفعل ولا تعد. فوقع كتاب له بعد ذلك إلى علي رضي الله عنه في يد معاوية فدعاه وقال:

---

(١) من عيون الأخبار ج ٧٣.

أتعرف هذا الكتاب ؟ قال : نعم كتب فأجبته . فأمر معاوية بقتله . فانتهى الخبر إلى ابنة له صغيرة ، فجاءت حتى قامت بين يدي معاوية وأنشأت تقول :

معاوي لا تقتل أبًا كان مشفقًا علينا فنبقى إن فقدناه شُرّدا

وتوتم أولادًا صغارًا بقتله وإن تعف عنه كنت بالعفو أسعدا

معاوي هبه اليوم لله وحده وللباكيات الصارخات تلدُّدا

معاوي منك العلم والحلم والتقى وكنت قديمًا يا ابن حرب مُسددا

فعجب معاوية وأصحابه منها ، ودمعت عيناه ، ووهبه لها [1].

قيل : وكان المأمون وجد على قائد من قواده ، فاستصفى ضياعه وداره ، وأنهب دوابه وماله وكان شيخًا فانيًا ، ولم يكن له من الولد إلا بنية صغيرة ، فأجمع أن يضرب في الأرض ، ويطلب من فضل الله عز وجل ، ويخلف (يترك) بنيته . فبكت الابنة وقبضت على أبيها وقالت : اقنع بما آتاك الله ، واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر : والزم الوطن وارحم

---

(١) المحاسن والمساوئ ص ٥٦١ .

وحدتي وضعفي وقلة حيلتي ، أو اذبحني فلا أُبتلى بفراقك فبكى الشيخ وقال :

تقول ابنتي لما أردت وداعها ... وقد حضرتني نية ورحيل
لعل المنايا في رحالك تنبري ... لنفسك ختلًا [(١)] أو تغولك غول
فتتركني أُدعى اليتيمة بعدما ... تبين وعزي بعد ذاك ذليل
أفي طلب الدنيا وربُك بالذي ... تسير له راع عليك كفيل
أليس ضعيفُ القوم يأتيه رزقه ... يساق إليه والبلاد محول
ويُحرم جمعَ المال من قد يرومه ... يكد عليه رحلُه وحُلول
فلو كنت في طود [(٢)] على رأس هضبة ... لها نجف فيها الوعول تَقيل [(٣)]
إذًا لأتاك الرزق يحدوه سائق ... حثيث [(٤)] ويهديه إليك دليل

قال : فنمى الخبر إلى المأمون ، فدعا بالشيخ فاستنشده شعره فأنشده ، فرق له ، وأمر برد جميع ما أخذ منه ، وأعاده إلى

---

(١) الختل : الخداع .
(٢) الطود : الجبل العظيم .
(٣) تقيل : تنام في الظهيرة .
(٤) حثيث : مسرع .

مرتبته، وزاده من عنايته(١) .

عاش يزيد بن زبيبة الشيباني دهرًا طويلًا حتى لحق زمن الحجاج، وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاج، وورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان يأمره بقتله، فلما دعا به قال له : أيها الأمير اتق الله بسبع عشرة نسوة أو تسع عشرة نسوة ليس لهن قيم غيري . قال : أحضرهن، فلما حضرن سألهن الحجاج عن شأنهن، فما منهن امرأة إلا وهي تقول : اقتلني ودعه . فقامت بنية له صغيرة، فبكت بكاء حارًا، موجعًا محرقًا، وأنشأت تقول :

أحجاج إما أن تجود بنعمة علينا وإما أن تقتلنا معًا

أحجاج كم تُفجع به إن قتلته ثلاثًا وعشرًا واثنتين وأربعًا

فَمَنْ رجلٌ دانٍ يقوم مقامه علينا فهلا لا تزدنا تضعضعًا

فرحمه الحجاج، وكتب إلى عبد الملك يسأله العفو عنه، فأجابه إلى ذلك وأطلقه(٢) .

---

(١) المحاسن والمساوئ ص ٥٦١ .

(٢) المحاسن ص ٥٦١ .

أقوال في الأبناء البررة :

١- قيل في المثل : فلان أبر من الهرة .

٢- قيل لحكيم : ما منفعة الولد ؟ قال : يستعذب به العيش ، ويهون به الموت .

٣- خير ما أُعطي الرجل بعد الصحة والأمن والعقل ولد موافق من زوجة موافقة .

٤- قيل لرجل : صف ابنك . فقال : ولد الناس أبناء وولدته أبًا ، يحسن ما أُحسن ، ولا أحسن ما يحسن .

٥- قال حكيم في ميت : إن كان له ولد فهو حي ، وإن لم يكن له ولد فهو ميت .

٦- كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين : صف لي ابنك . فقال : إن مدحته ذممته ، وإن ذممته ظلمته ، إلا أنه نعم الخلف لسيده من عبده ، إذا اخترمت عبده منيته فكتب إليه المأمون : ياذا اليمينين لم ترض بمدحه حتى أوصيت به .

٧- قيل : من سعادة المرء أن يشبهه ابنه .

٨- قيل : فلان ينظر عن عين أبيه ، ويبطش بيديه .

٩- جاء في الأثر : لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد .

١٠- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إنما سماهم الله أبرارًا لأنهم بروا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقًا كذلك لولدك عليك حق .

١١- بشر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمولود فقال : ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بار أو عدو ضار .

١٢- قيل : الولد سيد سبع سنين وعبد سبع سنين ووزير سبع سنين ، فإن رضيت مكاتفته لاحدى وعشرين وإلا فاضرب علي جنبه فقد اعتذرت إلى الله عز وجل .

١٣- وقال بعض الحكماء : ابن ريحانك سبعًا ، وخادمك سبعًا ، ووزيرك سبعًا ، ثم هو صديق أو عدو .

١٤- عن محمد بن حاطب قال : سمعت ابن عمر رضى الله عنه يقول لرجل أدب ابنك فإنك مسؤل

عن ولدك ما علمته . وهو مسئول عن برك وطاعته لك [١] .

١٥- قال أحدهم :

نعم الإله على العباد كثيرةٌ   وأجلهنّ نجابةُ الأبناء .

* * *

(١) كتاب الفقية والمتفقه ج ١/٤٧ .

العقـــوق

في سورة الأحقاف آيات متتاليات، واستُهلت بتذكرة الإنسان بالإحسان إلى والديه ووصف ما قاست أُمه في حمله. حملته تسعة أشهر فما برح يزيدها وهنًا على وهن وهي الخائرة القوى، الضعيفة الجسم، حتى نالها منه أشد ما ينال الإنسان من جهد، فلما آن لها أن تلقيه من جوفها مادة لتجعله في قلبها حبًا وحنوًا، ولتستبدل مسؤوليته الكبرى بعبئه الثقيل، تعنت في الخروج وأصر، وزادها ألمًا على ألم، وضعفًا فوق ضعف، حتى هوت عزيمتها، واستسلمت للقدر المحتوم، وأسلمت إلى الله روحها فخرج يزعق [١] ويبكي، فأطفأت غيظه ببارد لبنها، وأرضعته من خالص غذائها، وبدأت تعاني المشاق في إرضاعه وتربيته.

بعد هذه التذكرة التي يستوي فيها الأبناء، والتي هي بمثابة

---

(١) يزعق: يصيح.

مقدمة للموضوع، وأسباب موجبة للقانون صنف الأبناء صنفين: صنفًا يمثل البر بأبدع صوره، والسعادة بأجلى معانيها، والوفاء بأبلغ ما قيل فيه.

وصنفًا يمثل العقوق بأبشع صوره، والشقاء بأسوأ نتائجه، والجحود بأقبح معانيه.

صنفان من الأبناء: عرف أحدهما حق الله تعالى عليه فشكره، وشكر الله اتباع أوامره واجتناب نواهيه، وعرف حق والديه فأحسن إليهما وأطاع أمرهما، ووفر لهما ما يسرهما ويرضيهما، وعرف حق نفسه فولاها وجهة الخير، وجنبها مواطن الزلل، وعرف حق ذريته فأحسن تربيتها ودعا لها بالصلاح والتوفيق. ثم اعترف بعد كل هذا بتقصيره، وأقر بذنبه، وسأل الله تعالى التوبة، فتقبل الله عمله القليل، وأثابه الثواب الجزيل، وغفر زلته، ومحا خطيئته، ووعده الجنة. قال تعالى:

﴿ووصينا الإنسانَ بوالديهِ إحسانًا، حملته أُمُّه كُرهًا ووضعتهُ كُرهًا، وحملُهُ وفصالُهُ ثلاثونَ شهرًا، حتى إذا بلغَ أشدَّهُ وبلغ أربعينَ سنةً قالَ رب أوزعني أنْ أشكَر نعمتك

التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأنْ أعملَ صالحًا ترضاهُ وأصلحْ لي في ذُريتي إني تبتُ إليكَ وإني من المسلمين. أولئكَ الذينَ نتقبلُ عنهمْ أَحسن مَا عملوا ونتجاوزُ عن سَيِّئَاتِهِمْ في أَصحَابِ الجنةِ وعْدَ الصدقِ الذي كانوا يُوعدون ﴾[1].

في سن الأربعين يبلغ المرء غايته في القوة الجسمية : فيذلل الصعب ، ويلين القاسي ، وفي القوة الفكرية : فيضع الأمور في نصابها ، ويحتكم في المناقشة إلى العقل ، ويلجأ في الجدل إلى المنطق ، وينشد العدل ، ويستجيب للخير ، ويقدر المعروف .

في هذه السن – سن الكهولة – تغلب على المرء الأناة ، وينهج على نتائج مالاقاه من تجارب بعدما عركته الأيام ، وأذاقه الدهر صروفه ، فلا ينطق إلا بتفكر ،ولا يرتئي إلا بترو ، ولا يحكم إلا بعد تدقيق وتمحيص .

من هنا كان شكره لله تعالى شكر المؤمن الموقن ، وإحسانه إلى والديه إحسان المقر بالفضل ، الموفي للدين ، الخجل من

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان ١٥، ١٦ .

التقصير ، وانصياعه إلى الحق انصياع العاقل المنصف ، وابتغاؤه رضا والديه ابتغاء العطشان موارد الماء .

أما الصنف الآخر فركب رأسه ، ونفخ الشيطان في أنفه ، فرأى نفسه فوق بيئته التي تربى في أحضانها ، وظن أنه أبسط يدًا في أهله ، وأنه مصدر الخير لهم ، بل هو فيهم كالماء من النبات لا بقاء بدونه ، وكالثمر من الشجر لا فائدة إلا به ، وكالدليل من الركب لا منجى إلا بهديه وكالسماء من الأرض علوًا وارتفاعًا .

بهذا التفكير العقيم يقابل الإحسان بالإساءة ، والنصح بالتعنت ، والخير بالشر ، والمعروف بالأذى ، فهو كالعضو العليل إن ترك آلم ، وإن بتر شوه ، وما يملك الأبوان لابن أضله الباطل فأعماه عن الحق ، وأرداه هواه فكفر بالله تعالى ، وظلم نفسه فقابلها بالعقوق - إن أحبط الله عمله وأخزاه ؟ .

﴿ والذي قالَ لوالديهِ أُفٍّ لكما أتعدانني أنْ أُخرجَ وقد خلتِ القرونُ منْ قبلي وهما يَستغيثانِ الله ويلك آمنْ إنَّ وعدَ الله حق فيقولُ ما هذا إلا أساطيرُ الأولين . أولئك الذينَ حق عليهمُ القولُ في أممٍ قد خلتْ من قبلهم من الجن والإنسِ

إنهمْ كانوا خاسرين ﴾ [(١)] .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال : « آمين . آمين . آمين » قيل يا رسول الله علام أمنت ؟ قال : « **أتاني جبريل فقال : يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك . قل آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له . قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل آمين . فقلت : آمين** » [(٢)] .

إرغام الأنف هو إذلال النفس وإهانتها ، ومن أرغم الله أنفه فقد أذله وأخزاه ولا ينفعه بعدئذ مال ولا بنون .

لآبائنا علينا حق الطاعة ، فمن عصى والديه ، فقد أذلهما ، ومن نهرهما فقد أهانهما ، والجزاء من جنس العمل ، فالجنة عز وسبيلها البر ، والنار ذل وسببها العصيان .

جبريل يدعو على العاق ورسول الله يؤمن على دعوته ، فهل من شقي أتعس ممن يدعو عليه سيد الملائكة وسيد البشر ؟ .

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان ١٧ ، ١٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣٤/٣ وله طرق كثيرة .

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟** » قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « **الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين** » . وكان متكئًا فجلس فقال : « **ألا وقول الزور وشهادة الزور . ألا وقول الزور وشهادة الزور** » فما زال يقولها حتى قلنا لا يسكت [1] .

أُمور ثلاثة هي أعظم الذنوب عند الله عز وجل ، لا تعدلها معصية ، ولا تساويها فاحشة ، ولا ينفع معها عمل صالح ، ولا فرض مؤدى ، ولا نافلة مقربة ، في الكبيرة سخط الله فما بالك بأكبر الكبائر ؟ تجتمع هذه الكبائر الثلاث حول نقطة واحدة هي نكران الحق . فالمشرك ينكر وحدانية الله تعالى وهي حق ، والعاق ينكر فضل والديه وهو حق ، وشاهد الزور يعين الظالم على ظلمه ليأكل أموال الناس وهي حق .

المؤمن العاقل يخشى إن أتى الصغيرة ألا يغفر له فكيف بالكبيرة ؟ وهل يملك الإنسان وثيقة من الله أن يغفر له ويدخله الجنة إن ارتكب الكبيرة ؟ فكيف إن ارتكب أكبر الكبائر ؟

---

(١) صحيح البخاري ج٤/٤٨ .

أفبعد هذه التسمية مفر من العقاب أو منجى من العذاب ؟

وإن تعجيل العقوبة في الدنيا للعاق حقيقة واقعة ، ويعرفها الكثيرون من الناس ، ويروون في ذلك قصصًا عديدة متواترة ، وحوادث شاهدوها بأم أعينهم ، وأنا أذكر في هذا المجال الحادثة التالية :

كان لي قريب ، ترك له والده أموالًا نقدية ذهبية طائلة ، وعقارات متعددة ، وكان من عيون التجار . غضبت عليه أُمه يومًا ، ودعت عليه دعوة مُرة قاسية ، وإذا بالسوء يحيق به من جرائها . لقد مات فقيرًا مع أنه لم يسلك سبل الفواحش والمحرمات أبدًا ، وكان أبي - رحمه الله - يتصدق عليه ، ويرسلني بالطعام من دارنا إليه وإلى زوجته وأولاده . وأمثال هذا كثير . فعاقبة العقوق وخيمة جدًا ، فيها ذل للنفس ، وخلو من المال ، وابتلاء بالأبناء العاقين ، وفي الآخرة خزي وحسرة ونار .

لا يعتد العاقون بشبابهم ومالهم وجاههم فالله تعالى أجل وأكبر ، وضرباته قاصمة للظهور ، مبيدة للأموال ، ما حقة للجاه .

فاتقوا الله أيها الأبناء وارحموا أنفسكم ، وإياكم وسخط والديكم ، فسخطهما أوله عار وآخره دماره .

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعًا وهات ، ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال** »[1] .

عقوق الأمهات هو عصيانهن ، وعدم تأدية حقوقهن ، والتسبب في غضبهن ، والضن في الإنفاق عليهن ، وكل هذا حرام في نظر الإسلام كحرمة القتل والزنا وشرب الخمر ، بل هو حرام كحرمة الإشراك بالله تعالى .

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات فقال : « **لا تشرك بالله شيئًا وإن قتلت وحرقت ، ولا تعص والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدًا فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمرًا فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حلَّ سخط الله ، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس ، وإن أصاب الناس موت فاصبر ، وأنفق على أهلك من طَوْلك ،**

---

(١) متفق عليه (فتح الباري ج ١٣/ ٩) .

(٢) رواه أحمد وغيره (الترغيب والترهيب ج ٣/ ٣٢٩) .

ولا ترفع عنهم عصاك أدبًا وأخفهم في الله » [٢] .

الخروج من الأهل يقصد به مفارقة الأقارب والزوجة ، لأن كلمة (أهل) تطلق لغة على أقارب المرء وذويه كما تطلق على زوجته . أما الخروج من المال فالمقصود منه استغناؤك عن مالك كله لأبويك ، وإنفاقه عليهما ، وإن أصبحت خلي اليدين من درهم ومتاع ، لأن ما أعده الله تعالى لك عنده من خير وسعادة أعظم بكثير ممن فارقت من أهل وما أنفقت من مال .

لقد أتيت إلى الدنيا فقيرًا لا تملك ذرة واحدة منها ، فأنفقا عليك غذاء وكساء ، وتمريضًا وتربية ، وقاما بشؤونك كلها ، وخدماك ليلك ونهارك حتى كبرت ، فلما استغنيت جحدت فضلهما ، وتناسيت تعبهما ، وزعمت أن لك مالًا تضن به عليهما فتحاسبهما على نقيره وقطميره . أفهكذا يجازى أهل المعروف ؟

لقد انطلقت من فم رسول الله ﷺ حكمة بالغة تشق حجب الحياة لتلقي في مسمع كل ولد على مدى الدهر « **أنت ومالك لأبيك** » .

هذا فتى لم تسلك الحقيقة إلى قلبه سبيلا ، ولم يعرف قلبه من الحقيقة ما يجب ، يأتي رسول الله ﷺ والغرور ملء عطفيه

فيقول: (يا رسول الله إن لي مالًا وولدًا، وإن أبي يريد أن يجتاح[1] مالي). هنا تقف الأبوة مشدوهة حائرة، أيكون جزاء فضلي وتعبي أن أنعت بين يدي رسول الله ﷺ بالظلم؟ أهذا الذي يشكوني هو ذاك الذي ربيته على وجودي، وغذيته بخالص نفسي ومالي؟ أهذا الذي كنت أُؤمل فيه كف عبرتي وتنفيس كربتي وجبر خاطري؟ ورسول الله ﷺ يستمع إلى آهاتها فتتحسر نفسه ويألم من هذا العقوق، فيرفع على الفتى عصا التأديب الرفيع ويقول: «**أنت ومالك لأبيك**»[2].

سب الوالدين:

من أكبر العقوق أن يجلب الولد السبة لوالدية بتعديه على غيره بالسب أو الضرب أو القذف أو الغيبة، ينصب الشيطان له شركًا فيقع فيها، فلا يجد لنفسه بردًا ولا عزاء إلا الشتم فيشتم ويُشتم.

هذا الخلق السيئ منتشر في مجتمعنا على أوسع مداه تنطلق ألسنتنا بسب الناس وآبائهم لأتفه الأمور، ولو صدرت

(١) يجتاح: يستأصل.
(٢) رواه ابن ماجه واسناده صحيح ورجاله ثقات (نيل الأوطارج ٦/ ١٤).

منهم هفوة بسيطة تمسحها كلمة (عفوًا) أو ذنب صغير تمحوه كلمة اعتذار أو حجة مبرئة. وكثيرًا ما نعلِّم أطفالنا منذ الصغر سب الأب لنضحك من نطقهم الناعم.

وما انطلاق ألسنتنا بالسب إلا برهان على الحمق وسوء الخلق وفساد التربية. ومن هذا الذي نسبه؟ هو أخونا أو أبونا أو قريبنا أو جارنا أو ابن ملتنا أو ابن وطننا، وما من أحد من هؤلاء إلا وله علينا حقوق، وليتنا عرفنا حقوقه فأديناه قبل أن نكيل له الشتائم بلا حساب، وليتنا نقف عند هذا الحد من سبه فلا نزيد لعنات، وما عرفنا أن لعن المؤمن كقتله كما جاء في الحديث، وأن فحش الكلام محرم في الإسلام، وأن رسول الله ﷺ لم يكن فحاشًا ولا لعانًا.

لو نكتفي بسب من يسيء إلينا لالتمسنا لأنفسنا عذرًا، ولقلنا إننا انتقمنا لكرامتنا وغضبنا لقدرنا، وجازينا الإساءة بالإساءة، ولم ندفع السيئة بالحسنة، ولا التعدي بالصفح ولكننا لا نكتفي بهذا بل نتجاوزه إلى شتم أُمه وأبيه، ولا نعلم لأبيه ذنبًا ولا لأمه خطيئة، ولو كفانا هذا الظلم الذي أنزلناه بوالديه لصغر الإثم واحتملت المصيبة، ولكننا نتمادى في كلام

البذاءة والسوء من القول، حتى يكيل لنا الصاع صاعين، فيشتم أبانا وأُمنا وأُختنا وأخانا وأهلنا، وقد يستولي عليه الشيطان فيسب ديننا، وهنا البلية العظمى، وتأخذنا العزة بالإِثم فنثور ونغضب، ونعيد إليه شتائمه وسبابه، فيردها إلينا بأسوأ منها، وهكذا يستوفي والدانا جزاء إحسانهما إلينا ألوانًا من الشتائم والسباب والقذف. أليس هذا كبيرة وفاحشة؟ أليس هذا من أكبر الكبائر؟ استمعوا إلى رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**». قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه**»[1].

هذا الخلق السيىء لم يكن معروفًا عند العرب، حتى ولا في جاهليتهم الأولى، لأنهم نشؤوا على العزة والغيرة. ولما جاء الإِسلام صقل الطباع، وهذب النفوس، وزادها عزة وكرامة. لذلك تعجب الناس أن يلعن الرجل والديه تعجبًا مليئًا بالدهشة، فشرح لهم الرسول ﷺ كيفية ذلك، وكأنه يقول: هذا الخلق الدنئ سيتحلى بها أُناس غيركم ينتمون إليكم ولا

(١) البخاري ج ٤/ ٤٧ عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

يتحلون بأخلاقكم .

نحن قوم – ويا للأسف – فسدت طباعنا وساءت معاملاتنا وانحطت أخلاقنا وكأن الإسلام لم ينبع من أرضنا ، ولم يستقر في بلادنا ، وإنما طاف علينا ونحن نائمون فاستيقظنا على حلمه اللذيذ ، وأصبحنا ننشده كما ينشد المستيقظ حلمًا رآه .

أين نحن من مبادئ الإسلام؟ ومن أخلاق المسلمين الأولين؟ أولم يقسم رسول الله ﷺ أننا لن ندخل الجنة حتى نؤمن ولن نؤمن حتى نتحاب ، وأن التحابب ينشأ عن إلقاء السلام؟ أفي السباب والشتم تحابب أو سلام؟ لقد وصف رسول الله ﷺ التسبُّب للوالدين بالشتم بأنه من أكبر الكبائر ، وهل هناك ذنب أكبر من أن يكافئ الإنسان بالإساءة من أحسن إليه؟ وبالسب من تفضل عليه؟ وباللعن والقذف من أفنى حياته في سبيله؟ أهكذا يكون البر؟ أهكذا يجازى على الإحسان؟ إذا شتم الرجل والديه أو كان سببًا في شتمهما وقذفهما – وهما أحب الناس إليه ، وأحناهم عليه ، وأقربهم منه ، وأخلصهم له – فهل فيه ذرة من عقل أو فهم؟ وهل من المعقول أن يعد في زمرة بني آدم؟

عن عامر بن وائلة قال: كنت عند علي بن أبي طالب فأتاه رجل فقال: ما كان النبي ﷺ يسر إليك؟ قال: فغضب وقال: ما كان النبي ﷺ يسر إلي شيئًا يكتمه الناس، غير أنه قد حدثني بكلمات أربع. قال: فقال: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: قال: « **لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من غير منار الأرض** »[1].

كثير من أبناء مجتمعنا يتمازحون فيما بينهم بسب الآباء والأمهات، ولا سيما هؤلاء الشباب المتخنثين المائعين، ويتفكهون بكيل السباب والشتائم بعضهم لبعض، ويتضاحكون من هذا الكلام البذيء كأنه نوع من المدح والثناء. هكذا يجازي الأبناء آباءهم، وهكذا يدللون على مدى حبهم إياهم وبرهم بهم، فهل بعد هذا العقوق من عقوق؟ أليسوا – ويالأسف – رمزًا للسفالة والسفاهة؟.

(١) منار الأرض: علامات حدودها، وتغييرها أن يدخلها في أرضه فيكون في معنى الغاصب.
المحدث: الجاني، ومعنى الايواء: التقرير عليه والرضا به.
أخرجه مسلم في صحيحه.

بالله عليك أيها الأخ لو بقي الأبوان عقيمين أليس خيرًا لهما من أن يلدا أولادًا يتفاخرون بذمهم وقدحهم ، أو يكونون سببًا في جلب الضر والشتم لهم؟ ولو أن هؤلاء الأولاد كانوا آباء أفيرضون أن يعاملهم بنوهم بهذا الأسلوب؟

ومن أقبح العقوق أن يتمنى الولد زوال أبيه ليرثه إن كان غنيًا ، أو ليتخلص منه إن كان فقيرًا ، أو لينجو من مراقبته ومحاسبته إن كان مؤدِبًا ، كأن أباه وباء عليه .

حسّن الله أخلاقنا ، وأصلح نفوسنا ، وهدانا سواء السبيل .

أقوال في العقوق

١- قيل : الولد العاق إن مات نغصك ، وإن عاش نقصك .

٢- قيل : العقوق ثكل ما لا ثكل له .

٣- قيل : الولد العاق كالأصبع الزائدة ، إن تركت شانت ، وإن قطعت آذت .

٤- قيل لأعرابي : كيف ابنك؟ قال : هو عذاب رعف به الدهر ، وبلاء لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب عليها الشكر .

٥- قيل لبعض الفلاسفة : مالك تكره الولد؟ قال : مالي

وللولد، إن عاش كدني، وإن مات هدني.

٦- قال زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لابنه: إن الله رضيني لك فأوصاك بي وحذرني منك.

٧- مات لعبد الملك ابن، فجاء ابن له آخر فعزى أباه به، فقال عبد الملك: يا بني مصيبتي فيك أقدح في بدني من مصيبتي بأخيك. فقال: أمي أمرتني بذلك. فقال: يا بني إذا كان الأبناء قرة أعين الوالدين فأنت قرة أعين الشامتين.

٨- قيل لبعض الفلاسفة: لم تعق والديك؟ قال: لأنهما أخرجاني إلى الكون والفساد.

٩- قيل لصبي: لم لا تتعلم الأدب؟ فقال: أخاف أن أكذب والدي لأنه قال لي: إنك لا تفلح أبدًا.

١٠- كان للمبرد ابن متخلف، فقيل له يومًا: غط سوءتك، فوضع يده على رأس ابنه.

١١- بعث رجل ابنه ليشتري حبلًا. فقال: اجعله عشرين ذراعًا، فقال الولد: في عرض كم؟ قال في عرض مصيبتي فيك يا بني.

نصـائـح للأبنـاء

أيها الأخ المؤمن :

إذا أردت أن تكون سعيدًا في حياتك موفقًا في أعمالك ، فائزًا في الدنيا والآخرة ، ناجيًا من عذاب الله يوم القيامة فاتبع النصائح التالية :

١- أطع أمك وأباك في كل ما يأمرانك به . ما لم يكن معصية .

٢- خاطبهما بلطف وأدب .

٣- انهض لهما إذا دخلا عليك .

٤- قبل يديهما صباحًا عند انصرافك إلى أعمالك ، ومساء عند رجوعك إلى الدار .

٥- حافظ على سمعتهما وشرفهما ومالهما .

٦- أكرمهما وأعطهما كل ما يطلبان .

٧- شاورهما في أعمالك وأمورك .

٨- أكثر من الدعاء والاستغفار لهما .

٩- إذا كان عندهما ضيف فاجلس بقرب الباب وراقب نظراتهما لعلهما يأمران بشيء خفية .

١٠- اعمل ما يسرهما من غير أن يأمراك به .

١١- لا ترفع صوتك عاليًا أمامهما .

١٢- لا تقاطعهما أثناء الكلام .

١٣- لا تجادلهما في أمر ، وإذا كنت على يقين من رأيك فحاول أن تقنعهما بالحسنى ، فإن أصرا على رأيهما فلا تعاندهما ولو كانا على خطأ .

١٤- لا تكذب عليهما ، ولا تأخذ شيئًا لم يأذنا به .

١٥- لا تخرج للجهاد ولا تسافر إذا لم يأذنا لك .

١٦- إذا كنت مبتلى بالتدخين فلا تدخن أمامهما وإن سمحا لك .

١٧- لا تزعجهما إذا كانا نائمين .

١٨- لا تفضل زوجتك وولدك عليهما .

١٩-لا تلمهما إذا عملا عملًا لا يعجبك .

٢٠- لا تضحك بحضرتهما إذا لم يكن ثمة سبب للضحك .

٢١- لا تتناول طعامًا مما يليهما .

٢٢- لا تمد يدك إلى الطعام قبلهما .

٢٣- لا تنم ولا تضطجع وهما جالسان .

٢٤- لا تمد رجلك أمامهما .

٢٥- لا تمش بجانب أبيك في الطريق بل تأخر عنه قليلًا .

٢٦- لا تجلس في مكان أعلى من مكانهما .

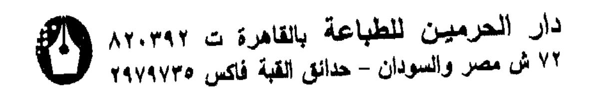
٢٧- لب نداءهما مسرعًا إذا نادياك .

٢٨- لا تصاحب غير رجل بار بوالديه .

والحمد لله رب العالمين .

(الفهرس)

* * *


دار الحرمين للطباعة بالقاهرة ت ٨٢٠٣٩٢
٧٢ ش مصر والسودان - حدائق القبة فاكس ٢٩٧٩٧٣٥



جماعة أنصار السنة المحمدية

تأسست عام

١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م

ومن أهدافها :

١ - الدعوة إلى التوحيد الخالص المطهر من جميع الشوائب .
وإلى حب الله تعالى حبًا صحيحًا صادقًا يتمثل في طاعته وتقواه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حبًا صحيحًا صادقًا يتمثل فى الاقتداء به واتخاذه أسوة حسنة.

٢ - الدعوة إلى أخذ الدين من نبعيه الصافيين - القرآن والسنة الصحيحة - ومجانبة البدع والخرافات ومحدثات الأمور .

٣ - الدعوة إلي ربط الدنيا بالدين بأوثق رباط عقيدة وعملًا وخلقًا .

٤ - الدعوة إلى إقامة المجتمع المسلم والحكم بما أنزل الله فكل شرع غيره - في أي شأن من شئون الحياة - معتدٍ عليه سبحانه ، منازع إياه في حقوقه .

تلقى بدار المركز العام للجماعة محاضرات دينية مساء والأربعاء من كل أسبوع


دار الحرمين للطباعة بالقاهرة ت ٨٢٠٣٩٢
٧٢ ش مصر والسودان - حدائق القبة فاكس ٢٩٧٩٧٣٥